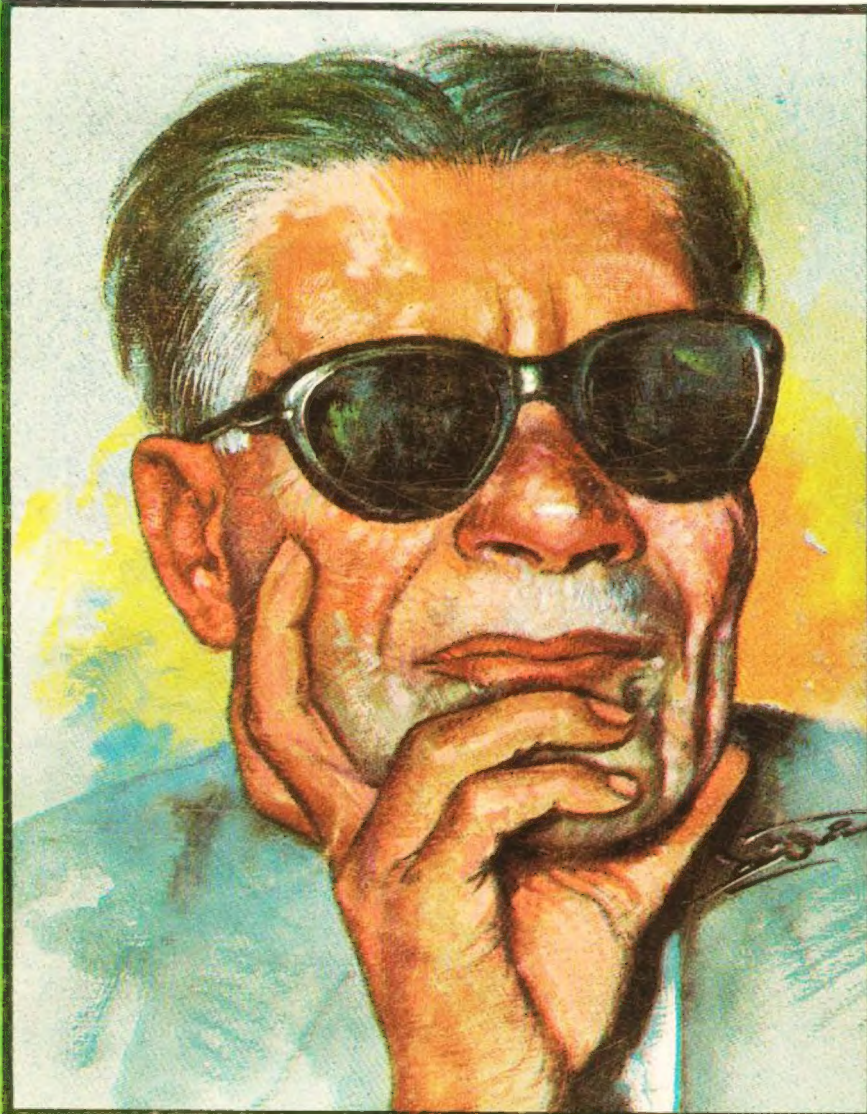


مندي مكتبة الاسكندرية

طه حسين

دعاء الكروان

فاضل



دار المعارف

طه حسين

دعاء الكروان

الطبعة التاسعة والعشرون



دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة للدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

حسين ، طه ، ١٨٩٨ - ١٩٧٢ .

دعاء للكروان .

تأليف : طه حسين .

- ط ٧٩ - القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٨) .

١٦٠ ص ٢٠٤ سم .

تكمك : ١ - ٧٢٢١ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .

١ - القصص العربية .

(١) العنوان .

ديوى ٨١٣

١/٢٠٠٨/٦٠

رقم الإيداع ٢٠٠٨ / ١٦٨١٠

تنفيذ المتن والغلاف

بالمركز الإلكتروني

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع .

هاتف : ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إلى صديق الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

سيدى الأستاذ

أنت أقمت للكروان ديواناً فخماً فى الشعر العربى
الحديث ، فهل تأذن فى أن أتخذ له عشاً متواضعاً فى
النثر العربى الحديث ، وأن أهدي إليك هذه القصة
تحية خالصة من صديق مخلص .

طه حسين

اتيح لهذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا
 العظيم خليل مطران موضع الرضا ، فأهدى
 إلى هذه القصيدة الرائعة فضلاً منه أتقبله
 فخوراً شكوراً . وأكره أن أوثر به
 نفسي من دون الذين يحبون الشعر الرفيع
 بل أكره أن يحملني التواضع الكاذب على
 إخفاء هذه المكرمة التي إن صورت شيئاً
 فإنما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاءُ هذا الكروان الذي
 خلّدته في مسمع الدهر
 له صدّى في القلب والفكر من
 أشهى متاع القلب والفكر
 لكنه مُشجّر بترجيعة
 لما جرى في ذلك القفر
 إذ تسكنُ البيداءَ وهناً فما
 ينبضُ إلاّ مُهجُّ السفر

والليلُ في التيه السحيق المدى
يُطبقُ جَفَنِيه على وزرٍ

والطائرُ المرتاعُ في جَوّه
يُنزِرُ بالمأساة في دُعرٍ

يُرْنُ إِرْنانَ سهامٍ رَمَتْ
حيثُ رَمَتْ بالشَّعلِ الحمرِ

أَسالَ أَدَمْعِي خَطْبُ مَطْلُولَةٍ
مَقْتُولَةٍ في زَهْرَةِ العمرِ

جَنَى عليها واهمُّ أَنَّهُ
يَثَارُ للمرض وللطهرِ

وخامرتني حسرةٌ خامرت
شُهُودَ ذاك المَصْرَعِ النُكْرِ

أليس للأرواح في بَشَّها
أواصرٌ من حيث لا تدري

جوهرُها فردٌ وإحساسها
مُشْتَرِكٌ في النفع والضررِ

حادثة في ريف مصرٍ جرت
ومثلها في الريف كم يجرى

قَصَّتْ عَلَيْنَا قَصَصًا شَائِقًا
 فِي كَلِمٍ أَنْتَى مِنَ الْقَطْرِ
 "مَسْرُودَةٌ" سَرْدًا عَلَى صَفْوِهِ
 أَفْعَلُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْحَمْرِ
 يَا لُغَةَ الْعُرْبِ الَّتِي كَاشَفْتُ
 طَهَ بِمَا صَانَتْ مِنَ السَّرِّ
 مِنْ أَيْ رَوْضٍ يُجْتَنَى مِثْلُ مَا
 جَنَاهُ مِنْ أَزْهَارِكَ النَّضْرِ
 مِنْ أَيْ بَحْرِ الْمُنَى دُرَّةُ
 يُصَادُ مَا صَادَ مِنَ الدَّرِّ
 مِنْ أَيْ تَبْرِ فِي غَوَالِي الْحَلِيِّ
 يُصَاغُ مَا صَاغَ مِنَ التَّبْرِ
 آيَاتُ طَهَ نَزَلَتْ بِالْهَدْيِ
 فِيمَ اسْتَعْمَارَاتِ فِتْنَةِ السَّحْرِ
 أَحْدَثُ مَا جَاءَتْ بِهِ طُرْفَةٌ
 بِدِيعَةٍ فِي أَدَبِ الْعَصْرِ
 جَلَتْ خِيَالُ الشَّعْرِ فِي صُورَةٍ
 أَغَارَتْ الشَّعْرَ مِنَ النَّثْرِ

1-١

لم يكن يقدّر أنى سألناه قائمة باسمه حين أقبل إلى فى ظلمة الليل
بسعى كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين
شخصى ماثلاً فى وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح
حتى أخذه شىء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال فى صوت أبيض
جعل يأخذ صوته الطبيعى قليلاً قليلاً : ماذا ! ألا تزالين ساهرة إلى
الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثه وما كان
ينبغي لى أن أنام قبل أن ينام سيدى ، فما يدرينى لعله يحتاج إلى شىء .
قال وقد عاد إلى ثباته وهدوء نفسه واسترد صوته شيئاً من قعته المألوفة
ودعايته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها
وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت
أرى من سبقك فى خدمتى ، وكنت أقدر أنى سأجد فى إيقاظك بعض
الجهد ؛ فلست أدري ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات .
قلت : قد أرحت سيدى من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت
منذ اصطنعتُ خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل فى دورهم ، فليأمر
سيدى بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلى يداً وددت
لو استطعت قطعها ، ولكنى تراجعت حتى لا تبلغنى : فإن سيدك يأمرك
أن تتبعه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت فى إثره .

ليبك لييك أيها الطائر العزيز ! ما زلت ساهرة أرقب مقدمك وأنتظر
نداءك ؛ وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ،
وأستجيب لدعائك . ألم أتعود هذا منذ أكثر من عشرين عاماً !

ليبك لييك أيها الطائر العزيز ! ما أحب صوتك إلى نفسي إذا جثم
الليل ، وهذا الكون ، وقامت الحياة ، وانطلقت الأرواح في هذا السكون
المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامته لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح
ليذكرني روح هذه الأنثى التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة
الرهيبة ، وفي ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن من سبيل إلى أن يسمع
الصوت فيه مهما يرتفع ، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث .

ليبك لييك أيها الطائر العزيز ! ادن مني إن كان من أخلاقك الدنو ،
وأنس إلى إن كان من خصالك الأنس إلى الناس ، واسمع مني وتحدث
إليّ ، وهلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ، وعجزنا عن أن ندفعها
أو نصرف شرّها عن تلك النفس الزكية التي أزهرت ، وعن هذا الدم
اليرىء الذي سفك .

فلم نزد حينئذ على أن بعثنا صيحات تردّدت في ذلك الفضاء العريض
لكنها لم تبلغ أذنّاً ولم تصل إلى قلب ، وإنما صعدت إلى السماء على حين
هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً ،
ثم هيل التراب وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا
أستغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة في السن قد انتحيت ناحية وجلست
تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل متقدم في السن قد قام غير

بعيد يسوى الأرض ، وبصب عليها الماء ، ويردها كما كانت ، ثم يتحى قليلا ويزيل عن جسده وثيابه آثار الدم والتراب ، ثم يرتفع صوته آمراً أن هكّم فقد آن لنا أن نرتحل .

منذ ذلك الوقت تمّ العهد بينك وبينى أيها الطائر العزيز على أن فذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نثار لهذه الفتاة التى غودرت فى هذا الفضاء ، ثم نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن نظفر بالثار ، ليكون فى ذكرنا إياها وفاءً لهذه النفس التى أزهدت ، ولهذا الدم الذى سفك ، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المحرم وردّ الأمر إلى نصابه ، وأراح هذه النفس التى ما زالت تطلب الرى حتى تظفر بالثار من الذين اعتدوا عليها .

ليك ليك أيها الطائر العزيز ! إنا لنلتقى كلما انتصف الليل منذ أعوام وأعوام فندير بيتنا هذا الحديث ، أفندعنى أقص أطرافاً منه على الناس لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهى ، والدماء البريئة من أن تراق ١٩

٢-٢

لقد بعد صوت الكروان قليلا قليلا حتى انقطع ولم يبلغنى منه شيء ، وعاد الليل إلى سكونه الهادئ الثقيل ، وأطمأن من حول كل شيء ، فإسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد ، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين . . . وأنا آخذ

نفسى بالهدوء لألا تم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا فى مشقة وعناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولى فى الغرفة فأرى ثراء ويسراً ، وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن ، وأنا أمدّ عيني إلى المرأة أمامى وأثبتها فى أدبها الصافى الصقيل حيناً فتعود إلى بصورة إلا تكن رائعة بارعة ، فإنها لا تخلو من رواء وفضرة وحسن تنسيق . وما لى أسأل عن صورة هذه المرأة الجمالدة الهامدة التى لا تحس شيئاً ولا تشعر بشيء ولا تعرب عن شيء ولانى لأرى صورتى مرآت ومرآت فى غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التى تحسن الإفصاح عما فى النفوس وهى العيون ! لقد رأيت صورتى اليوم فى غير عين من هذه العيون التى كانت ترمقنى مسرعة ، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى قليلاً ، ثم تعود إلى مرة أخرى فتثبت فى وجهى لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلما رأيت صورتى فى هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآتمة لا أنكسر ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسى عن هذا الغرور الذى يثيره فى المرأة إعجاب الناس بها وتهالكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسى ، وأمشى فى غرفتى لحظة غير قصيرة ، أذهب فيها وأجىء ، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا معجبة به ولا مكبرة له ، وإنما أسأل نفسى : أنا صاحبة هذا كله ؟ أنا المالكة لهذا كله ؟ أنا صاحبة هذه الصورة التى تردّها إلى المرأة التى كانت ترمقها العيون معجبة حين كنت أتناول الشاى فى بعض مشاربه عصر اليوم ؟ !

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل حتى كاد

يبلغ ثلثيه ، أن أمدّ يدي إلى زرّ كهربائي قريب ، فلا أكاد أمسه حتى يطرّق الباب ، ولا أكاد أرفع صوتي بالإذن حتى تدخل علىّ خادم وضيفة ، حسنة الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة مهما يتقدّم الليل لأنى ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن تأوى إلى مضجعها حتى آذن لها بالنوم . ثم أنا أمضى إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسي روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجحة ، وهذه الأطيّار التي تحلم في ثنايا الفصون . وكل هذا لي ملك خالص لا يشاركني فيه أحد ، ولا يزاحمني عليه أحد ، أستطيع أن أعبث به إن شئت ، ومنى شئت ، وكيف شئت ، لا يسألني أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت في نفسي صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمناً وثقة ، ثم لا ألبث أن أحس شيئاً من الكبرياء الغريبة ؛ لأنى لا ألبث أن أرى صورتي منذ أكثر من عشرين عاماً حين كنت صبيرة بائسة يائسة ، قد شوه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كثيفاً من الدمامة والقبج . لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التي كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، والتي كان يتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز .

إنّ في أحداث الحياة وخطوبها لعظات وعبراً ! إنى لأتحدث الآن إلى نفسي حديثاً ما كان يمكن ولا يتنظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التي كان الناس يسمونها آمنة ، والتي تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والنظرف في الأسماء .

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية . انحدرت بها وبأختها امرأة من

أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية ، لأنه منبث فى أطراف الأرض الحصبة مما يلى الصحراء الغربية أو مما يلى هذه الهضبات التى يسميها أهل مصر الوسطى بالجبل الغربى .

كانت زهرة أم آمنة وأختها هنادى امرأة بدوية ريفية ، تقيم فى قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب التى لا يستقر أهلها فيها إلا ربثاً يزيلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يُقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار فى الأرض والحياة فى أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم يعضون أمامهم مضياً بطيئاً ، يتقلون فى أناة ومهل من مكان إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المتحضرة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المتبدى ، وإذا هم على شاطئ القناة التى يسمونها البحر ويزعمون أن يوسف هو الذى احتضرها فى الزمن القديم . فإذا أتبع لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحتفظ ببدائته ، وأكثرهم يقضى فى طبقات الزراع ويضيع فى عداد الفلاحين .

كانت زهرة أم هاتين الفتاتين تعيش مع زوجها الأعرابى وابنتيهما فى قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها فى أكبر الظن من بطن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ؛ فقد كانت تسمى « بنى وركان » وكان أهل القرية ومن حولها يُسمون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الباء ، فما أسرع ما أصبح سبة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح اسمها « بين الوركين » وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحيون من اسم قريتهم ويكرهون الانتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن . فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلا

أضحك الناس وأجرى على ألسنتهم مزاحاً كثيراً ثقيلاً ، "مخفّظاً لنفس البدوى الذى لم يتعود دعاية القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتها عيشة متواضعة هادئة ، فيها رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى كانت أمنا تنسب إليها . ولكن أبانا لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة إنما كان زيرَ نساء يحب الدعاية والمجون ، ولا يتحرج مما يتحرج منه الرجل المستقيم . وكانت له فى القرية وفى القرى المجاورة خطوط كانت تخيف منه وتخيف عليه .

وكانت أمنا أشقى الناس بهذه الخطوب ، تتأذى بها فى ذات نفسها - فكم حرقها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة - وتشفق منها على زوجها هذا الماجن ؛ فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهين نفسه عداوات خطيرة فى كل مكان بإلحاحه فى المجون والفجور ، وتخاف منها على حياة ابنتها ومستقبلهما وآمالهما فى العيش الهنىء .

ولأنها لقي ما هى فيه من غيرة وإشفاق وفزع ذات ليلة ، إذ جاءها النبأ بأن زوجها قد صرع . ثم يستين الأمر قليلا قليلا ، فإذا الرجل قد ذهب ضحية لشهوة من شهوات الآثمة ، فليس له ثأر يطالب به ، وليس من سبيل إلى استعداد السلطان على قاتليه ، وإنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتها التعيستين ، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء ، تكره مكانهن منها ، وتنفيهن عن الأرض ، وترودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة ، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع فى أرض

الريف يلتمس حياتهن فيها يائسات شقيات ، ليس لهنّ منّند يعتمدن عليه ، ولا ركن يأوين إليه ؛ وإنما هي امرأة وحيدة لها حظ من جمال يُطعم فيها الناس ويفرى بها أصحاب المحجون ، وصييتان بائستان لا تكادان تحسان شيئاً .

والخطوب تستقل بين من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ، يلقين بعض اللين هنا ، ويلقين بعض الشدة هناك ، ولا تستقر بين الأرض في أى حال ، حتى ينتهين إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتي تشقها الطريق الحديدية نصفين ، ويمضى فيها هذا الشيء المروع الخفيف الغريب الذى يبعث في الجو شرراً وناراً ، وصوتاً ضخماً ، وصغيراً عالياً نحيفاً ، والذي يسمونه القطار ، الذى يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم ، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ، وبالأقدام في أكثر الأحيان .

هنالك في طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه المرأة مع الصييتين . لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ العزبة فأواها يوماً ، ثم ابتغى لها ولايتها حجرة ضيقة حقيرة قلرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن تدفع أجرها عشرة قروش كلما بدا الهلال . ثم قال لها شيخ العزبة : ما أكثر العمل هنا ! فالتمسى حياتك وحياة ابنتيك في بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون في الزرع والحراث ، وإنما يعملون في خدمة الحكومة ، منهم من يخدم في معامل السكر ، ومنهم من يخدم في المركز ، ومنهم من يخدم في المحكمة الأهلية أو الشرعية ، ومنهم مهندس الري ، ومنهم مهندس الطرق ؛ ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تُخرج الأرض من الحب ، فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون ، في هذه الأمتعة

والعروض التي لا تأتي من الريف ولا تصنع في المدينة ، وإنما تأتي من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما نطق ولا يعيشون كما نعيش .

عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها في المدينة وفي القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون في بيوتهم عبثة السادة والأمراء : لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد . لا يأكلون الدرة ، وإنما يأكلون خبز الحنطة . لا يأكلون في أطباق النحاس . وإنما يأكلون في أطباق من الخرف . لا يسمحون لنسائهم أن يخرجن متبذلات ، وإنما يخرجن ملففات في هذه الثياب يتخذنها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاق ، وعلى أنوفهن هذه القصبات من الذهب الخالص أو من الفضة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة في بيوتهم لينة ناعمة ، فالتمسى لنفسك ولا بتتلك بعض العمل في بعض هذه البيوت . قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سمي لها أشخاصاً ووصف لها بيوتاً ووعدها بالمعونة . واتقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة ، كانت أمنا تدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا للخدمة ، كما تُعرض الإماء على السادة .

ولكن هذه الأيام لم تتصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا في بيت تعمل فيه بالنهار ، وتنام فيه الليل ، ولتبقى آخر الأسبوع ، فتقضى ليلة سعيدة وضحية في حجرتنا تلك القنطرة الحقيمة ، قد حملت كل منا ما أتبع لها حمله من الطعام ، فنجتمع إلى طعامنا ، ونحدث عن أهلنا وقربتنا ، ثم عن ساداتنا وسيداتنا ، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا في نوم هادئ لذيذ ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل في بيوت التجار والموظفين .

٣-٣

وكننت أحسن الثلاث حفظاً وأيمنهن طالماً ؛ فقد قدر لي أن أخدم في بيت مأمور المركز ، وكانت خدمتي غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسي ، ولكنني لم ألبث أن أحببتها ووجدت فيها لذة ومتاعاً . كلفت أن أصحب صبيه من بنات المأمور كانت تقاربنني في السن ، ولعلها كانت أكبر مني قليلاً .

كنت أرافقها في اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أتعلم معها ، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقي عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها .

كنت لها خادماً لحظها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا أشاركها في شيء مما تعمل . ولكن « خديجة » كانت حلوة النفس ، رضية الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، مبتسمة الثغر دائماً ، وديعة النفس ، رقيقة الحاشية ؛ فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد ، وإنما أشركتني في لعبها ، واختصتني بأحاديثها وآثرتني بأسرارها ، ولم تبخل عليّ حتى ببعض ما كانت تمنحها أمها من الحلوى ، أو من النقد لتشتري به الحلوى .

وما هي إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين . وسيدة البيت تنكر ذلك أول الأمر ، ولكنها تدعني له بعد حين ؛ وإذا أنا أختلف مع الصبية إلى الكتاب فأتعلم كما تتعلم ، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستفيد كما تستفيد ، وإذا ثياب الصبية تخلع عليّ فيقرب ما بينها

وبيني من اختلاف الزى ، وأختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى المرأة ، فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقاً ولا اختلافاً ، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر ، وكنت أتكلم لغة فجة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من « بنى وركان » . وكنت أأقلد فى نفسى لغة خديجة فأحسنها وأجيدها ، ولكنى حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فردتُ عن ذلك ردعاً عنيفاً . ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألقى أمى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يخزبنى ويردنى إلى لغة الريف .

وأنفقت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألقَ فيهما بأساً ولم أشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الترف والتعيم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بينى وبين أمى التى كانت تعمل فى بيت موظف من موظفى الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين . وبعد فيهما الأمد بينى وبين أختى التى كانت تعمل فى بيت مهندس الرى ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم . ذلك الشاب الذى كان يعيش وحيداً فى دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نضرة ، ولا يعيش معه فيها إلا خادم رقيق ، يحرس الدار ويعنى بالحديقة ، وإلا أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب ، وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويرك أكثره لخادميه .

وكنت أرى أختى تشبّ مسرعة ، ويستدير جسمها استدارة حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال ، ولكنها ظلت كما أقبلت من

ريفها المتبدى ، ريفية بلدوية ، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب .
ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء .

وفى ذات يوم التقينا آخر النهار فى حجرتنا تلك الحقيرة القذرة ،
وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه الحجرة ، وأود لو
أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ، ولو استطعت أن ألقى أى
وأختى من حين إلى حين حيث كانتا تعملان . ولكن أمتنا كانت صارمة
حازمة ملحة فى الصرامة والحزم ، لا تغير من عاداتها شيئاً ، فكنا نلتقى
آخر الأسبوع دائماً ، وكاننا نضحكان وتنعمان بهذا اللقاء ، وكنتم
أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما التعميم .

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء ، لم أر بشراً ولا ابتساماً ، ولم أر
بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحسست صمتاً عميقاً مريباً ، ورأيت وجهين
كثيرين مظلمين ، وخيل إلى أنى أرى دموعاً تضطرب فى عيني أمتنا
ولا تستطيع أن تنحدر . وهممت أن أسأل عما أرى ، فأعرضت أختى عني
إعراضاً ، وأشارت إلى أنى لا تسأل .

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلاً فى هذا الهم المعض الذى لم أكن أفهمه
ولا أثبت له مصلراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأة بجملة واحدة لم أسمع بعدها شيئاً ، ولم
أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صلت هذه الجملة عن أمتنا
فوقعت فى قلبي موقع الصاعقة ، ولقيتها أختى بوجوم غريب ، رفعت
عينها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .

قالت أمتنا : إذا كان الغد فسرتحل عن المدينة المشتومة !

لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن أناقش وأجادل ، ولكن أمنا قالت هذه الجملة بصوت حزين بعيد محطم ، فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان .

وذكرتُ ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن الفاجر . ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الدل ، وما روع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذي ألم بها فهدّها هدّاً حين جاءها النبأ بأن زوجها قد صرع ، وبأنه قد صرع فيما لا يشرف به صريع .

ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها ، والتي غمرتها كما يغمر الماء الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نفّها مع ابنتيها من الأرض .

ذكرتُ هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن أظهرت الطاعة والإذعان . والله يعلم أى ليلة قضيت ساهرة حائرة ثائرة ، لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأى . حتى إذا كان الصباح نهضت أمنا فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل ؟ قالت فى صوت هادئ حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقيمى فسنرحل نحن . قلت باكية : إن فراقهم ليؤذيني لكنى لن أستطيع أن أقيم ، وإلما هبطت معكما هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل . قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا ، أليس أبوها مأمور المركز ؟ أفنّ تعلق بك وكرهت فراقك يُخلّ بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن فلنرحل . وما هى إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ،

وانتقلت بنا من قرية إلى قرية نحو الغرب ، حتى إذا بلغ منا الإعياء أقمنا حيث كنا نستريح ونتنظر الصباح .

٤-٤

ويتهى إلى صوتك أيها الطائر العزيز ، وأنا أسبح في نوم غير عميق ، وأرى من الأحلام صوراً قريبة مألوفة تمثل لي خديجة وهى تلعب وتدعوني إلى أن أشاركها في اللعب . وتمثل لي سيدة البيت وهى تأمر وتنهى ، وتصعد وتهبط ، وتذهب في تدبير بيتها وتجيء . وتمثل المأمور وقد أقبل مع الظهر فاضطرب لمقدمه البيت ، ثم عاد إلى هدوء يوشك أن يكون السكون ، ثم فرغ أهل البيت كلهم لهذا الرجل يعنون به ويتوفرون على خدمته ، كأنهم لم يخلقوا إلا له ، ولم يوقفوا إلا عليه .

وتمثل لي أموراً كثيراً مما كنت أراه في ذلك العهد السعيد القريب . ولكن صوت الطائر العزيز يبلغني فيخرجني من هذا النوم الحلو إلى بقطة مؤلمة لا أكاد أشعر بها حتى أحس غلظ المضجع وخشونة الفراش . وأين يقع هذا الوطاء الحسن من الصوف قد بسط على الأرض الغليظة بسطاً ، من ذلك الفراش الوثير الموطأ الذى كان يلقي لي غير بعيد من سرير خديجة في تلك الغرفة الجميلة المترفة من بيت المأمور !

لم أكد أحس خشونة هذا الوطاء ، وغلظ هذه الأرض ، حتى ذكرت أننا ننام عند مضيفتنا العمدة على سطح من سطوح الدار ، لا يسترنا سقف وإنما تظللنا السماء ، وتكاد تغمرنا ظلمة الليل لولا هذا الشعاع الرقيق الذى

كان يترقق فيها من ضوء القمر ، وقد تقدم به الشهر غير قليل .
نعم ! وذكرت كيف انتهينا إلى هذه القرية مجهودات مكثودات آخر
النهار ، فجلس إلى شجرات من التوت ساعة وبعض ساعة نستريح ،
لا تكاد واحدة منا تتحدث إلى صاحبتها بشيء : حتى إذا طال علينا
الصمت ، وشقت علينا الراحة ، وثقل علينا التفكير ، قالت أمنا :
ما أظن أننا نستطيع أن ننق الليل جالسات إلى هذا الشجر ، وما أرى أننا
نستطيع أن نجد من يؤوينا أو يضيفنا في هذه القرية التي لا نعرف من
أهلها أحداً ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة ، فيجب أن يكون بيته
مفتوحاً لكل غريب طارق ليل أو نهار . ثم نهضت مثاقلة ونهضنا معها ،
ومضت متباطئة ومضينا معها ، حتى انتهت إلى دار العمدة ، لم تسأل عنها
ولم تستدل عليها ، وإنما مضت إليها كأنما كانت تعرفها من قبل . هنالك
رأينا جماعة من الناس قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة ، وتوسطهم
رجل شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تنق النفس بأنه عمدة القرية . فلما
بلغنا مجلس القوم ولحظتنا أبصارهم ، تقدمت أمنا إلى الشيخ الوقور وقالت
في صوت هادئ مترن : غريبات قد طرقت القرية في هذه الساعة المتأخرة
من النهار فأؤنا يا عمدة حتى يسفر الصبح . قال الرجل : على الرحب
والسعة . ثم دعا فأقبل إليه غلام من داخل الدار ، قال : خذ هؤلاء النسوة
إلى دار الضيافة ومُرّ بأكرام مثواهن .

ومضى الغلام ونحن نبعه حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة ، فإذا بناء
متواضع قد انبسط أمامه فناء عظيم ، فأدخلنا إلى بعض حجراته وقيل لنا
أقمنا هنا حتى يأتيكن الطعام .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اتصلنا بمن في الدار من أضياف

ونخدم ، قد اختلط بعضهم ببعض فكأنهم جميعاً أصحاب البيت ، ثم اتصلت الأحاديث واختلطنا بمن وجدنا ، فأمسينا وكأننا منهم .

وكان العشاء الغليظ : وكان للسمر المضطرب المختلط ، ثم كان التفرق إلى المضاجع ، فبنا من أثر الهواء الطلق فاتخذ مضجعه على سطح الدار أو في فنائها ، ومنا من أشفق من ذلك فأوى إلى الغرفات والحجرات . وقد رغبت « هنادى » فى السطح وشاركتها فى هذه الرغبة ومضينا معاً نتظر النوم ، وكنت أحدث نفسى بأن هذه الخلوة إلى أختى قد تكشف لى عن بعض ما يخفى على من أمر .

ولكنى لم أكد أجلس إليها أحاول أن أصل الحديث بينها وبينى حتى لقيتني بذلك الإعراض المثلوج الذى لقيتني به أمس ، ثم أشاحت بوجهها ومضت فى صمتها ، وأقمت أنا إلى جانبها حائرة لا أدري كيف أقول .

ثم استلقيت وأرسلت نفسى فى فضاء هذا الليل العريض تلتمس ما يلهمها عن هذه الهموم الغامضة المستغلفة التى لم أكن أعرف منها إلا ثقلها . ولكن هذه النفس لم تكد تمضى فى ظلمة الليل حتى أدركها موج من هذا النوم اليسير فأخذت تسبح فيه ، وليت كذلك حتى أخرجها منه هذا الطائر العزيز . ذكرتُ هذا كله حين استيقظت ، ومرت بى خواطره بسرعة فى حين كنتُ أحاول أن أثبت أين أنا وكيف انتهيت إلى حيث أنا ، وفى حين كنتُ أفتح عيني وأديرهما من حولى كأنما أريد أن أستكمل شخصى حين أثبت حقيقة المكان الذى أنا فيه ، وفى حين كنت أمد ذراعى عن يمين وشمال ، وأمد ساقى كأنما أريد أن أستمد لجسمى ما أفقده هذا النوم اليسير من نشاط ، وكأنما كنت أمحو عنه ما تركت فيه هذه الأرض الغليظة من ألم .

ثم أستكمل شعورى وأجد نفسى كما كنت قبل أن يغمرنى النوم ،
وأحس كأن شخصاً قائماً غير بعيد منى ، فأتبين هذا الشخص فإذا هى
أختى قائمة جامدة لا تكاد تأتى حركة . ولا تكاد تحس شيئاً ، وكأنها
لا تكاد تفكر فى شىء .

إنما هو شخص مائل ذاهل قد قام فى شىء من الجمود المثلّم ، ورفع
رأسه إلى السماء كأنه كان ينتظر منها شيئاً ، وكأنما أبطأ عليه ما كان ينتظر
منها فجمد فى مكانه لا يستطيع منه انتقالاً .

وأنت أيها الطائر العزيز تلتقى فى الليل العريض المظلم نداءك البعيد
العذب ، فيصل إلى نفسى فبحيبها ، ويوقظ فيها الذكرى ويبعث فيها
الأمل ويشيع النشاط ، وأختى مائلة ذاهلة كأن صوتك لا يبلغها ولا ينهى
إليها : ومع ذلك فما عهدتها صماء ، ولا عهدتها تحسن الحزن أو تجيد
الاكتئاب ، وإنما أعرفها فرحة مرحة ، تحب الضحك ولا تحتاج إلى أن
تدفع إليه ، وإنما تحتاج إلى أن تدفع عنه . أين هى ؟ ما بالها جامدة
هامدة لا تسمع ولا تحس ؟ لعلها قد أرسلت نفسها كما أرسلت نفسى
تسبح فى هذا الليل العريض فأبعدت نفسها فى المسعى وتركت جسمها
ماثلاً بلا روح ؟

نهضت من مكانى فى هدوء ، وسعيت إليها فى أناة ، حتى إذا بلغها
مسست كعظها مساً رقيقاً ، فإذا رعشة عنيفة تجرى مسرعة فى جسمها
كأنها رعشة الكهرباء ، وإذا هى تعجل كالخائفة ، ثم تأمن وتسكن حين
تسمع صوتى وأنا أقول لها : لا تراعى ، فأنا أحتك آمنة ، ما وقوفك الآن
على هذا النحو مائلة ذاهبة النفس ، كأنك الصنم ؟ ماذا تتظن من

الليل ؟ وماذا تبتغين من السماء ؟ قالت وقد هوت إلى الأرض كأنها البناء
المتهدم وصوتها مضطرب ممزق ، يتمزق له قلبي كلما ذكرته : لا أنتظر شيئاً
ولا أبتغى شيئاً . . .

ثم عادت الرعدة السريعة فهزت جسمها هزاً ، ثم انهمرت دموعها
انهماراً ، ثم احتبس صوتها فإذا هي تضطرب اضطراباً عنيفاً ، وتسفح دمعاً
غزيراً ، وترسل أنفاساً عنيفة متقطعة ، وأنا أجتو إلى جانبها وأضمها إلى
وأقبلها ، وأحاول أن أرد إليها الهدوء والأمن وسكون النفس ما وسعني ذلك ،
حتى إذا مضى وقت غير قصير سكن جسمها بعد اضطراب ، وانطلقت أنفاسها
بعد احتباس ، ومضت دموعها تنهمر ، وأوت إلى ذراعي كأنها الطفل
قد استسلم إلى أمه الرعوم ، وأطمأن رأسها إلى كتفي ، وقضت كذلك
لحظة ما نسيت ولن أنسى عذوبتها . وما أرى إلا أنها أحست هذه العذوبة !
فقد ثابت إليها نفسها وراجعها رشدها ، ولبثت حيث كانت حتى بعد
أن سكنت دموعها ، كأنما أعجبها مكانها مني ، وكأنما وجدت شيئاً طالما
كانت تتوق إليه فلا تجده ولا نظفر به . ثم سمعتها تقول بصوت خافت
بعيد : لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أي لا منك أنت أيتها الأخت
الصغيرة ؛ فإنك لم تخلقى لتدلي أختك وتمنحها مثل هذا العطف والحنان . .
يا لك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة
التي تنفي ، ويسيطر عليه هذا السكون الخفيف ظلالاً لا حدة لها ، ثم يندفع
فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضى ينطلق
في بحر من الظلمات !

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي

كانت ناثرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت ، وانتهت إلى حال تشبه النوم . وإني لآخذ نفسي بالهلوه وأكرهاها على الاطمئنان ، وألزم جسمي السكون في هذا الوضع الذي هو عليه ليبقى هذا الرأس البائس المحزون مستريحاً إلى هذه الكتف الصغيرة الحنون .

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوى جالسة ، ثم تبسط ذراعها فتطوق بها عني ثم تضمني إليها ، ثم تقبلني ، ثم تقول : إياك أن تفعل ما فعلت أو تُخدعنى كما خُددتُ أو تدفعني إلى مثل ما دُفعت إليه . إنك إن تفعل ترى نفسك في مثل ما تربني فيه الآن من الجزع والهلع ، ومن اليأس حتى من رحمة الله ، ومن القنوط حتى من رَوْح الله الذي لا يقنط منه إلا الكافرون .

قلت : وماذا فعلت إذن ؟ وما هذا الشر الذي دُفعت إليه ؟ وما هذا اليأس الذي تغرقين فيه ؟ وما هذا الهم الثقيل الذي صُب علينا صباً ولم نكن ننتظره ولا نتوقع له مقدماً ؟ قالت وهي تقبلني : لست أدري أأحدثك بذلك أم أكتمك إياه ، إني لأعتدى على سنك أن تحدثت إليك ، وإني لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كتمتك الحديث .

قلت : فإن صمتك لن يغني الآن شيئاً ؛ فقد عرفت أن هماً ثقيلاً ألم بنا ، وأن حزناً ممضاً يمزق قلبك وقلب أمنا ، وأن يأساً مهلكاً قد استأثر بنفسك استئثاراً ، وما أنا بمقلعة عن السؤال والبحث والتفكير حتى أعلم علم هذا كله . وإني لحمقاء إن قبلت أن أنزعَ من ذلك العيش الناعم السعيد الذي كنت أستمع به دون أن أعلم لماذا أنزع منه نزعاً ، فحدثيني حديثك ، فمن يدري لعل فيه لي عظة ولك عزاء .

5-5

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتدفق بغمر فتاتين معتنقتين قد
أغرقتا في نوم عميق ، لا يوقظهما منه حرّ الشمس المحرقة ، ولا مس
الأرض الغليظة ، ولا اضطراب الدواجن من حولها وهن يزدهن على ما ينثر
لهن من حب ، ويختصن فيما يُصبّ لهن في الصحاف من ماء ، ويخفقن
بأجنحتهن في الهواء مقبلات مدبرات ، واقعات طائرات ، ينادين ويتناجين
ويتناغين ، قد ملأهن إشراق الصبح مرحاً ، فلأن الجوحياة ونشاطاً وجباً .
وكان هذا كله كان يدعوني دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذى كنت
مفرقة فيه ، ويدنينى قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا أتلقى الحياة دون
أن أتمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط ، ثم أحس
كأن شيئاً خفيفاً رشيقاً قد مسّ كفى مساً يسيراً فأنته ، ولا أكاد أفتح
عيني وأتى بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت غير مسرعة
فى الارتفاع ، ولم تكد تطير حتى وقعت فى رشاقة وظرف غير بعيد ،
فأستوى جالسةً وألقى نظرة إلى أختى وقد ثاب إلى حديثنا كله مرة واحدة
فلأ قلبى إشفاقاً وجباً وحزناً . وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب ،
واستقر قلبها المضطرب ، وهدأت نفسها الثائرة ، وزالت الراحة عن وجهها
ذلك الغشاء المظلم الكتيب ، فبدت نضرته حلوة مشرقة شائقة . كأنها نضرة
الزهر وقد تفتح لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا فى هذا الوجه الهادئ
النضر جمالٌ للعين ، وفتنة للنقل ، ومتعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا
أكاد أحول عيني عنه ، مستريحةً "معجبة" مكبرة ، ولكنى أسمع من ورائى

صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى : انظري . . .
انظري . . . وأطيلي النظر ! ألسنت تريها حسناء رائعة الحسن ؟

فألتفت وإذا أمنا جالسة تنظر إلى الوجه الذي أنظر إليه ، وما أشك في أن نفسها كانت تستعرض خواطر كالتى تختلف على نفسى ، وفي أن قلبها كان يتأثر بعواطف كذلك التى كانت تملأ قلبى ، فأسألهما : ما جلوسك هنا في هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب : لقد كنت أملأ عيني بمنظر كما الجميل . . . ثم تنهض مولى في شىء من الإسراع وهى تغالب شجى يريد أن ينفجر ، وتحرص هى على أن يظل دفيناً .

وأقيم أنا في مكاني ذاهلة أو كالذاهلة ، أنظر إلى أخفى التى لم تستيقظ بعد ، وإلى أمى التى تسرع مولى تريد أن تهبط أسفل الدار ، وأفكر في هذه الفتاة اليائسة وفي هذه المرأة البائسة ، وأسأل نفسى : أيهما أحق بالعطف وأجدر بالثناء ؟ وأسأل نفسى : أيهما أحق منى بالمعونة والنصر وبالتعزية والتسلية ؟ فكلتاهما في حاجة إلى العون ، وكلتاهما في حاجة إلى العزاء

هذه الفتاة البريئة لم تعرف يؤس النفس قبل الآن ، وهى تستقبل الشقاء الآن مظلماً قائماً ثقيلاً ملحاً ، لم تدعه ولم تسع إليه ، وإنما أكرهت عليه إكراهاً وأغريت به إغراء ، ثم دُفعت إليه دفعاً ، وهى الآن غريق مشرفة على الموت ، تريد أن تقاوم وتجاهد الموج ما وسعها الجهاد لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

ولإنها لى ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة ثمامة تستطيع أن تستمسك بها وتستبقى فضلاً من أمل ، وحظاً من رجاء .

وهذه المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة بعدُ ولكنها قد فرضت على نفسها حياة الشيوخ: حرمانٌ متصل، وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة، وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع، واكتفاء بما يقيم الأود ولا يدنى من الموت، ونظر متصل إلى هذا الماضي القريب الذي يملؤه الحزن ويفعمه الأسى، وتضطرم فيه هذه النيران التي تُحرق قلب المرأة حين تحب، فلا يسعفها الحب، ولا تلقى ممن تحب إلا خيانة وخداعاً وغدراً. وإنها لتي ذلك محزنةٌ لأمسها، يائسة من غدها، معرضة عن يومها، وإذا الحياة تنكشف لها عن خطب جديد ثقيل، ليس أقل نكراً ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التي بَلَّتْها في حياتها الماضية، فهي تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عوناً ولا نصيراً.

لقد أنكرتها الأسرة وجفأها الأهل ونفثها القرية، وأصبحت وحيدة تعول ابنتين بائستين، وإذا هي تُنكبُ في إحداهما لأمر لا تعلمه وقضاء لم تكن تنتظره. كلتاها بائسة، وكلتاها شقية، وكلتاها خليقة أن تجد من الأخرى ما تحتاج إليه في هذا كله. ولكن هذه النكبة الملمة، والكارثة الملهقة قد باعدت بينهما: فالأم محنقة على ابنتها: والفتاة نافرة من أمها، لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين إحداهما في عين الأخرى، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسيهما! ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة منتحلة إحداهما إلى أن تولى مدبرة لتناى عن صاحبتهما فلا يكون بينهما نظر ولا حديث.

هل أستطيع أن أردّ ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم البائسة

والابنة المحزونة ؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيننا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رياء ؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نمضي ، وماذا تريد بنا أمنا هذه التي تأمر وتنهى في لهجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حواراً ولا جدالاً ؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه ، وأخرى أن أسعى إليه . فلا تبعن أي إذن ولا تطفن لها ، ولأسألنها في أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها ، ثم أنظر بعد ذلك فيما آت ، أو فيما يمكن أن تأتي من الأمر .

كل هذه المعاني تضطرب في نفسي ، وعيني لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادئ الذي يدل هدووه على أن أختي ما زالت في تلك الأعماق البعيدة التي كنت فيها منذ حين ، لم يبلغها ضوء الشمس وحرّها ، ولم يؤذيها مسّ الأرض وغلظها ، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصياح .

فأنهض متثاقلة مترفقة حتى أهبط فناء الدار ألتبس أمنا ، وما كان أيسر الوصول إليها ! فقد اعتزلت غير بعيد من السلم وجلست منحنية تعبت في الأرض بأصابعها عبثاً يدلّ على شيء من الدهول ، كأنما كانت تناجي همّاً ثقيلاً أو تنبع خاطراً بعيداً ؛ حتى إذا بلغتها مسست رأسها يدي وسألها مداعبة : ما هذه اللعبة التي تلعبين ؟ وهلا دعوتني لأكون شريكك في اللعب ؟! فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لعبة واحدة . . .

قالت وقد رفعت إلى رأساً حزيناً : أترينني ألعب يا ابنتي ؟ قلت : فما عسى أن تفعل بهذا التراب الذي نذهب فيه أصابعك وتجيء ؟ ثم أنهضتها فلم تمنع عليّ ، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء

لا يكثر فيها اضطراب الأضياف ، ونظرت إليها فإذا هي تنقاد إلى مستسلمة ، وإذا حزنها العميق وحنانها القوي قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال .

هنالك أحسست من نفسي قوة ، وشعرت كأنى أنا الأم « زهرة » وكأنها هي الفتاة « آمنة » ، فأتخذت صوتها ولهجتها وألقيت عليها في غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريدن ؟ وماذا تصنعين ؟ وأين تذهبين بنا ؟ قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئاً ، ولا أدرى أين أذهب بكما ، وإنها أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت : ولكن إلى أين ؟ قالت : سرى . قلت : ومتى نرى ؟ قالت : لا أدرى . قلت : فقد ينبغي أن تدرى ؛ فما يحسن بثلاث من النساء أن يهن في الريف على وجوههن ، تلفظهن قرية وتلقاهن قرية أخرى ، يؤوين هذا العمدة وقد يردن ذلك . قالت : فماذا تشيرين ؟ قلت : أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين تلك اللور التي كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء . . .

وهنا أخذتها رعدة قوية وقالت في غضب وحدة : أى أمن وأى هدوء ! إنك إذن لم تعلمي . قلت : بل علمت . قالت : وقد اجترأت البائسة على أن تلقى إليك هذا الحديث ! ألم يكفها ما اقترفت من الإثم ، وما انغمست فيه من الدنس حتى أوادت أن تكوني لها شريكة ! قلت في رفق : دعها وما هي فيه الآن وعودي بنا إلى ما كنا فيه :

أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين ما كنا نستعين به على الحياة من عمل ، فإني أرى أن نلتمس العمل في قرية من هذه القرى عند غنى من هؤلاء الأغنياء . قالت : لقد فكرت في هذا ، ولكني أرى

أن ليس إليه من سبيل ! فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن ،
ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو زوج . قلت : فليس لنا
أب ولا أخ ولا زوج ! قالت : بل لنا من يحمينا ، وقريتنا التي نقينا عنها
أحقّ بنا ونحن أجدر أن نعود إليها . ولئن بلغناها ليعلمنّ الذين جفونا
ونفوتنا أن من العار أن تنفى الأسر نساءها وكرائمها ! فالمرأة عورة يجب
أن تسر ، وحرمة يجب أن ترعى ، وعرض يجب أن يسان .

قلت : فأنت تريدان إذن أن تعودى إلى تلك الحياة البائسة التبعة
التي كنت تحيينها بين قوم لا ينظرون إليك إلا شراً ، ولا يعطفون عليك
إلا كرهاً ، ولا يتحدثون عنك إلا في سخرية ورحمة شر من السخرية ؟ !
قالت : نعم ! فكل هذا أهون مما لقينا ، وكل هذا أهون مما يمكن أن نلقى
إن مضينا في هذه الحياة الهائجة التي لم نخلق لها ولم تخلق لنا . ولقد انقطعت
تلك الأسباب التي كانت تدعو إلى جفاء الأسرة وإعراض ذوى القربى
وسخر الأعداء ورتاء الأصدقاء . لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها
العهد . ولئن بلغنا قرينتنا ليدكرن الناس بعض أمرنا حيناً من الدهر ، ثم
لا يلبثون أن ينسوه وأن يتسونا ، ولا نلبث نحن أن ننغمس في حياتنا الأولى
ونعيش بين أهلنا بائسات ، ولكن آمناات . . .

قلت : وتريدان أن نبلغ هذه القرية ساعيات على أقدامنا ، فننقل
من ريف إلى ريف ، ونستضيف هذا يوماً وذاك ليلة ، وقد أعجلتنا
بالرحيل عن كل أمرنا ، فتركنا متاعنا وما اجتمع لنا عند من كنا نعمل
عندهم ! قالت : سترين ، فلن ينالكما جهد ، ولن يمسنّ حياءكما أذى ، سنقيم
هنا حتى يأتى من يحملنا إلى قرينتنا ويبلغنا مأمننايين الأهل والأصدقاء .

قلت : وكيف يستقيم لنا هذا ؟ قالت : علمت منذ أصبحت أن اليوم في القرية سوق يجتمع فيه الناس من أطراف الريف ، فلاسعين بين الناس والبائعات ، فلن أعدم بينهم رجلا أو امرأة من أهل قريتنا أو من أهل قرية مجاورة ، فلاحملنه رسالة إلى أهلنا ، ولن يتم الأسبوع حتى يكون أخى هنا قد أقبل يحملنا إلى حيث ينبغي أن نعيش .

وهمت أن أمضى معها في الحديث ، ولكن حركة عنيفة قطعت علينا ما كنا فيه . فهؤلاء نسوة قد أقبلن يحملن الحفان والأسفاط ويدعون إلى الطعام .

ويسمع الأضياف دعاءهن ، ويرى الأضياف مقدمهن فيستجبن للدعاء ويسرعن إلى الطعام ، ولا بدّ من أن تستجيب كما استجبن ، ومن أن نسرع كما أسرعن ، لا بدّ من أن أصدف فأنبه أختي هذه التي لا تريد أن تفيق من نومها الطويل بعد أن كانت لا تريد أن تخرج من أرقها الطويل .

فأصعد ، ولكني لا أكاد أبلغ آخر السلم حتى أراها قائمة ساهمة حيث رأيتها من الليل حين أيقظني طائر الغريز .

٦

وأقبل من في الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء القرية البائسات على الطعام مسرعات يتزاحن بالمناكب ، ويتدافعن بالأيدي ، ويتزاجرن باللفظ واللحظ ، ويرتفع في أثناء ذلك منهن دعاء لصاحب الدار أن

يوتق الله حزامه ، ويعلى مقامه ، ويصرف عنه الداء ، وينصره على الأعداء .
ونحن نسعى وجلات خجلات ، يدفعنا الجوع والأدب ، ويمسكنا
الحياء والاحتشام ، حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قلّ الكلام ،
وقرت الأجسام ، واضطربت الأيدي وعملت الأفواه .

وأنا أرى هذا كله فيؤذيني منظره ويقع من نفسي موقعا أليماً .
ما أبعد ما بين هذه الأيدي الغليظة الخشنة قد تقلص جلدتها وتقبض ،
وهي تغوص بما فيها من الخبز غوصاً في القصاع فتصيب منها ما تستطيع ،
وما بين تلك الأيدي الرقيقة الرفيقة الناعمة المترفة التي لم تكن تمتد إلى
الأطباق إلا هينة ، والتي لم تكن تمسّ ما في الأطباق إلا بهذه الأدوات
التي يعرفها أهل المدن خاصة بل يعرفها المتفرون من أهل المدن خاصة !

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاغرة التي يلقى فيها الطعام إلقاءً على
عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدرده الحلق ! وكأن الطبيعة لم تودع
هذه الأفواه حساً نجد به لذة ما تأكل وما تشرب ، وإنما اتخذتها طريقاً
إلى الحلق ثم إلى الأجواف ، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التي
لم تكن تفتح إلا بمقدار ، والتي لا تلتهم ولا تلتقم ولا تنهى بما فيها إلى
حلق تزدرد ، وإنما تطيل المضغ وتستمتع بما يمسيها من الألوان ، ثم تنهى
به على مهل إلى حلق تسبغه في أناة ورفق ، كأنما الأكل فن من الفنون
لا بد فيه من الروية واصطناع المهل والأناة !

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التي حشرنا فيها حشراً في فناء هذه الدار ،
وما بين تلك الأسرة التي كنت أعمل عندها وأجد في خدمتها حين تجلس إلى
المائدة لذة ومتاعاً يعدلان بل يريان على ما كنت أجد من اللذة والمتاع حين

أجلس إلى طعامي مع رفاقي من الخلم بعد أن يتفرق سادتنا عن مائدتهم !
 أين أجد القدرة على أن أدفع يدي مع هذه الأيدي وأحرك في مع
 هذه الأفواه ! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن ضيقة بهن ،
 وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي
 وأصيب منه قليلا بين حين وحين . وأمتنا تصيب من الطعام في قصد
 واعتدال ، قد حال الحزن والحياء بينها وبين إرضاء حاجتها إلى الغذاء . وأختي
 واجبة ساهمة كأنها في أرض غير هذه الأرض ، وهـ حياة غير هذه الحياة .
 ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات ، ونهم نحن أن نتحى
 ناحية ، ولكننا لا نكاد نبلغ من ذلك ما نريد حتى يدركنا نسوة ثلاث
 يجلسن حيث نجلس ويأبين إلا أن يأخذن معنا في الحديث . تقول
 إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة ،
 ويحفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عنوبة مغرية وميل إلى
 الفكاهة ظاهر : ما رأيت كاليوم نسوة يستغنين بالأعين والآذان عن
 الأيدي والأفواه وعن الألسنة والحلق والأجواف .

ها أنتن أولاء بيننا منذ أمس ، وما سمعنا لكنّ صوتاً ولا عرفنا من
 أمركن شيئا . وها أنتن أولاء تستدرن معنا حول الطعام فلا تكدن تمددن
 إليه بدأ ولا تكدن تصبن منه حظاً ، كأنما يغذيكن النظر إلى الطاعمات
 وهن يلتقمن ويلهمن ويزدردن ، وكأنما يرضى حاجتكن إلى الحديث
 الاستماع للمتحدثات ! ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد من
 في الدار مكاناً ، وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتشر
 معها في الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المحزون . حتى إذا

فرغت من ضحكها وجرت الهواء إلى جوفها جرّاً هو أشبه بالشهيق المثير
قالت : أهذا شأنكن بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة
ورضاً؟ إنكن إذن لبائسات .

قالت هذا ثم التفتت إلى أمنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تثيرها
إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن أمنا لم تنطق بجوف ولم تعرف
كيف تلقى هذا السيل المنهمر من اللفظ ، وإنما انعقد لسانها انعقاداً ،
وظهر على وجهها اضطراب شديد ، ولم تثبت عينها لعنى هذه المرأة
الجريرة اللعوب فغضتاهما ، وأطرت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير
يلجّ عليه الكبار في السؤال عن بعض أمره فيمنعه الحياء من أن يجيب .

هنالك التفتت هذه المرأة إلى وقالت : هذه أمك صامته لا تقول ،
وهذه أختك واجمة لا أمل في أن تفهم ولا في أن تجيب ، فتكلمى أنت
فإني أرى في عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه القحة ، وما أظن أن فر
عينيك ملحاً . . . ١. قولى من أنتن ومن أين تُقبلن؟ وما خطبكن؟
وما إعراضكن عن الطعام؟ وما إيثارككن للصمت؟ قلت ولم أستطع أن أدفع
الضحك عن نفسى أمام هذا الهجوم المفاجئ الغريب ، وأمام إغراق
هاتين المرأتين الآخرين فى الضحك ، وإغراق أمنا فى الصمت ، وإغراق
أختى فى الوجوم : وأنت من تكوينين ومن أين تُقبلين ؟ وما أنت وسؤالك
إيانا وإلحاحك علينا ؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتيهما : ألم أقل لكما إنها « قارحة »
ليس فى عينها ملح ، وإنها هى التى ستستمع لى وترد على ! ثم التفتت
إلى وقالت : تحقيق . . . أسمعين ؟ تحقيق . . . أنا مكلفة أن أخضعك
له ، ستعرفين من أنا ، وستعلمين أنى تعودت التحقيق مع النساء

ومع الرجال أحياناً والإلحاح في السؤال على أولئك وهؤلاء . . . ثم أرسلت ضحكها ورجعت شبيهاً، وسألتني ملحة : من نكون ومن أين نقبل ١٩ وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفة حيناً ولينة حيناً آخر ، جادة حيناً وهازلة في أكثر الأحيان ، وصاحبها تعيناتها على بعض ما تريد من ذلك ، حتى أنسنا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى ، وعرفت من أمرهن ما رغبن في ألا تنقطع الصلة بيني وبينهن ما أقمن في هذه الدار ، وكُن جميعاً من أهل المدينة التي أقبلنا منها ، قد بلغن هذه القرية معاً قبل أن نبغلهما نحن بساعات ، أقبلن راكبات وأقبلنا نحن سعيّاً على أقدامنا . فأما هذه الحفظة التي كانت تسأل وتلح في السؤال ، وتمازح وتغلو في المزاح ، فكانت امرأة عظيمة الخطر ، عرفت من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل ، وتبينت أن اسمها كان شائعاً دائماً على جميع الألسنة وفي جميع الأنحاء لا في المدينة وحدها بل في كثير مما يحيط بها من القرى والعزب والضياع .

كان اسمها « زنوبة » وكان تاريخها حافلاً بالخطوب والأحداث ، كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس . كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة ، وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يفدون على المدينة في فصل الشتاء ليشغلوا في معمل السكر . وكانت تفيد من فصل الشتاء هواً كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً . حتى إذا تولى عنها الشباب شيئاً وأخذت تدن من الكهولة قليلاً قليلاً آثرت ظاهراً من القصد ، وتكلفت شيئاً من الاعتدال ، وأسدت على مجونها ودعابتها ستاراً رقيقاً تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ إلى ما وراءه فتدل أصحابها على ما يبتغون .

ثم اتصلت بالشرطة ورؤسائها في المدينة . وكانت وسيلتها إلى هذا الاتصال معرفتها للشبان ، ومحالطتها للرجال ، وانسلاها إلى بعض الدور واسمائها لكثير مما يلقى من الحديث ، وعلمها بكثير مما يقع من الحوادث . ولم يكن من الخطوب . فكانت عيناً من عيون الشرطة تنفذ إلى كثير جداً مما لا تنفذ إليه عيون الرجال ، وكانت تفيد من ذلك مالا ، وتكسب من ذلك هبة ، فكان الناس يخافونها ، ويتلطفون لها . وكانت الشرطة تستعين بها استعانة خاصة خصبة حين يصرع صريع بالليل ، ويبحث المأمور وأعوانه عن القاتل فلا يظفرون به ، هنالك كانت تنقل إليهم ما تسمع من الأحاديث في بعض أندية الشباب وفي داخل كثير من البيوت ، وحين يعتدى اللصوص على دار من الدور ثم تعمى آثارهم وأخبارهم على الشرطة . وكانت أنفع ما تكون للشرطة وأقلر ما تكون على إعاتها حين يهاجم الطاعون أو الكوليرا أو أى وباء من هذه الأوبئة أهل المدينة وما حولها من القرى ، وحين تريد الحكومة أن تستكشف المرضى وتعزلهم في تلك الخيام التي كان يكرهها الناس أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت .

هنالك كنت ترى «زنوبة» حركة متصلة كأنها النحلة ، لا تستقر ولا تهدأ ولا تعرف السكون والاطمئنان . هي في كل شارع وفي كل حارة وفي كل زقاق وفي كل بيت ، ونقالة الضحّة من ورائها تجوب الشوارع والأزقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافاً . وفي تلك الأوقات كان الناس يغيضون زنوبة أشدّ البغض ، ولكنهم كانوا يضطربون إلى لقائها واحتمالها ، يسمون لها ويلعنون الوباء لأنه لم يمسسها ولم يحملها على هذه النقالة ولم يضطرها إلى هذه الخيم التي تضطر إليها الناس .

وقد جمعت زنوبة من كل هذه الحرف مقداراً لا بأس به من المال . فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت وتنميهِ . وقد سلكت إلى ذلك طريقين : فهي من ناحية مرايية ، تقرض الجنيه بثلاثة أمثاله منجمة على العام ، وتشترى من الأسواق في المدينة والقرى ما تستطيع شراءه من الحب رخيصاً ثم تبيعه بين الفقراء والبائسين ، تشتط عليهم في الربح لأنها تصبر عليهم في اقتضاء الثمن . وقد زهد الشباب فيها وقلَّ نشاطها إلى اللهو الجريء ، فبحثت ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلاً من الخفراء غريباً عن المدينة وفد إليها منذ حين ، قوى البنية طويلاً ضخماً ، غفيف الصوت ، ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيئ الخلق ، مدخول الضمير ، فاتخذته زنوبة لنفسها زوجاً أو خليلاً ، وعاشت معه عيشة يقرها القانون وتنكرها الأخلاق والدين ، ويمقتها أهل المدينة أشد المقت . وهي حين رأيها لأول مرة كانت قادمة على القرية التي كنا فيها لشترى ما تستطيع شراءه من القمح والذرة والفول ، ثم لتعود به إلى حيث تمتص به أموال الفقراء والمعدمين .

ولم تكن « خضرة » أقلَّ خطراً من زنوبة ولا أهون شأنًا ، وإنما كانت مثلها معروفة بعيدة الصيت ، يتحدث الناس بها وبأبنائها حين تخرج من المدينة وحين تعود إليها ، ويشقى بها الرجال والنساء جميعاً ، ويسعد بها الرجال والنساء جميعاً أيضاً .

كانت دلالة ، تفد إلى العاصمة من حين إلى حين ، فتجلب منها مقداراً غير قليل من هذه العروض الخفيفة اليسيرة الرخيصة التي هي مع ذلك فتنة للنساء وشقاء ومتعة للرجال . لم يكن في المدينة بيت مرف

إلا وبابه مفتوح لخضرة تلدخله جهراً وتلدخله سراً أيضاً . ونفس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضاً تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها ، وقد تفضي إليها بالأحاديث ، وقد تحملها الرسائل والأنباء . وكان نشاط خضرة يشتد ويعظم إذا كان الشتاء وجرت في النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة ؛ فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشتري من البضائع والعروض ، تصطنع هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة ، ولأنها كانت تستطيع أن تستصحب فيها من الحقائق والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصعبه في القطار .

كانت إذا عادت إلى المدينة تسمع بها الناس ، وانتظر النساء مقدمها عليهن وزيارتها هن . وكانت أسعد السيدات هذه التي تظفر بزيارتها الأولى تسبق إلى خير ما عندها من ضروب الأقمشة على اختلافها ، ومن صنوف الأعطار ، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهينة التي يحتاج إليها النساء ويتنافسن فيها ، ومن أنواع الخرز ينوع خاص ، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتخذها النساء حلياً لأذرعهن يعالجن لبسها علاجاً شديداً دقيقاً خطراً وقلماً يفرغن من هذا العلاج دون أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحاً بليغاً . وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيداً متصلاً في البيوت للنساء والأطفال جميعاً ، أولئك يسعدن بما تعرض عليهن من عروض الزينة والمتاع ، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الهند ، ولا سيما هذه الحلوى التي كانت تجلبها خضرة من القاهرة والتي لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع في المدينة ؛ فقد كانت رقيقة لينة لا تشقى بمضغها

الأضراس ، وتجد فيها الأفواه والحلوق لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه اللذة التي تجدها فيما يصنع في المدينة من الحلوى السمسمية أو الحمصية الغليظة اليابسة التي يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهد .

وكانت خضرة تحمل إلى الفتيات النواهد فتنة لا تشبهها فتنة بهذه المناديل الملونة التي كانت تجلبها هن والتي كن يَفْتَتْنَنَ في إدارتها حول روسهن وفي اتخاذها سجوقاً فتانة خلافة لشعورهن الثقال . ولا تذكر هذه الضفائر أو هذه الخيوط التي تنظم فيها قطع دقيقة رقيقة ضيقة من المعدن والتي توصل بالضفائر ، وبضفائر الفتيات النواهد خاصة ، فيكون لها على ظهورهن منظر حسن ، ويكون لها رنين حلو إذا مشين أو أتين بعض الحركات . وكان الرجال يحتملون عودة خضرة من القاهرة باسمين بل مغتبطين أول الأمر ، يجدون في ذلك رضاءً بريئاً وتلهية نقية للنساء والفتيات ، فإذا مرت أيام وكثر تردد خضرة على البيوت واشتد طمع النساء فيما تعرض عليهن من المتاع ، وظهرت رغبة النساء ملحة على وجوههن وفي حديثهن وفي تنكرهن للرجال حين يظهرون تمنعاً أو إباء ، ضاقوا بخضرة أشد الضيق ، وودوا لو تذهب مرة إلى القاهرة فلا تعود .

وكانت خضرة إذا فرغت من إرضاء نساء المدينة على اختلافهن في الطبقة والثراء ، تنقلب بما يبقى لها من سقط المتاع بين ما يحيط بالمدينة من قرى الريف . وهي في ذلك اليوم الذي لقيتها فيه كانت تزور القرية ومعها حقيتان أو ثلاث فيها من هذه الدوائر الزجاجية ومن الخرز والمناديل الملونة ما لم تقبله المدينة وما تتلقاه القرى بلهفة شديدة ، وما لعله

بورق ليل كثير من الريفيات ويملاً أحلام كثير من عذارى الفلاحين .
ومن الخطأ أن يظن أن « نفيسة » كانت أقل شهرة من صاحبيتها
أو أيسر منهن شأنًا عند أهل المدينة وعند أهل الريف . كانت متقدمة
في السن قد بعد عهدها بالشباب ، وتركت الشيخوخة في وجهها وصوتها
وجسمها كله آثاراً قبيحة منفرة للنفوس ، ولكنها على ذلك كانت
دخيلةً في كل بيت ، صديقة لكل امرأة . كانت عرافة تقص ما كان
وتصف ما هو كائن ، وتنبئ بما سيكون . وكانت لها صلة قوية بالجن
والشياطين ، تسعى بالرسائل بينهم وبين النساء وتستخدمهم في كثير مما يشغل
حياة المرأة الجاهلة الساذجة التي لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على
الناس لا حد له . هذه ضيقة بزوجها لأنه يخونها أو يؤثر عليها ضررها
فهي تستعين بنفيسة لتسلط عليه عفريتاً من الجن يصدده عن خطيته
أو عن زوجته . وهذه تحس من زوجها نشوزاً أو إعراضاً ، فهي تستعين
بنفيسة لتتخذ لها من الطلسمات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة
دارها . ولم تكن نفيسة أقل تأثيراً في نفوس الرجال والشبان منها في
نفوس النساء والفتيات ؛ فقد كانت تحسن استشارة الودع وسؤاله عن
الغيب ، وقد كانت تحسن استعطاف النساء إذا نفرن أو أعرضن ، وقد
كانت تحسن تسخير الجن في قضاء ما يلتوى من الحاجات . وكانت
نفيسة مشغولة دائماً ، لا تكاد تسريح من السعي بالرسائل والحاجات
بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين . ولكن
شهرتها بذلك قد جاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف
فأخذوا يسعون إليها ، ثم أخذت هي تسعى إليهم وتتقل بينهم يسحرها

وظلسماتها وودعها . وهى حين رأيته كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أنباء الغيب .

ولم يكذب يتصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى نفوسنا ، وأحرصهن على أن تحتلكننا وتصل بيننا وبين أصدقائنا من الجن والعفاريت ، لم نجد فى ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً . فهذه الفتاة الذاهلة التى لا تكاد ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تجيب خليقة أن تلفت العجوز الساحرة إلى نفسها ، وقد فعلت . . . فما أكثر ما تلح هذه العجوز فى السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة ! والفتاة لا تجيب ، وأمتنا أشد منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه . والسؤال يتجه إلى دونهما ، فأضطر إلى أن أزعم أن بأختى علة قد أعييت الطبيب ، وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء ، وما أيسر ما تفض السرة وينثر منها الودع على الأرض ! ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفريقاً ، وضماً ونثراً ، تلائم بينه وتخالف ، وتتخذ منه أشكالاً تقرأ فيها من أنباء الماضى والحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إنى لأراها الآن وقد مضت أعوام بطوال منذ ذلك اليوم وهى تنظر فى الودع وتطيل النظر ، ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التى تدل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع . وإنى لأسمع صوتها المحطم الذى كان هامساً دائماً مهما يرتفع . وإنى لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم ما نسيتهما ولن أنساها . وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ نظرت إلى وديعها ، ثم أطالت النظر فيه ، ثم رفعت عنها إلى أختى فأطالت النظر فى وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عنها فيه ، ثم رفعت رأسها وهى تقول للفتاة : إن أمرك يا ابنتى لعجيب ، إنى أراك بين اثنين : أحدهما

يحبك وسيؤذيكَ ، والآخِر آذاك وسيحبك ، وإني لأحاول أن أفهم فلا أستطيع . والرأى لك يا ابنتى أن تستشيرى سادتنا من الجن أو سادتنا من الأولياء... وما أرى أن هذا عليك عسير ؛ ففى هذه القرية القريبة منا والى تستطيعين أن تبلغىها فى ساعة وبعض ساعة ما تحبين : فيها مقام سيدنا فلان ، وإنه لىأتى بالأعاجيب ، وفيها دار فلانة وإن قرينها من الجن ليحدث بالأعاجيب أيضاً . ولم تكذ نفيسة تنطق بالجملة الأولى من حديثها حتى وثبت أمنا كأنما دفعت إلى الوثوب دفعاً آلياً ، وانطلقت مسرعة فلم نرها إلا بعد وقت طويل .

٧

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تنشر فى الجو المظلم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث... ما خطبك ؟ وما أنباؤك ؟ وما الذى يغربك بى ويسلطك على ؟ ! لا أكاد أمضى فى النوم حتى تسرع إلى توقظى ، كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً ألا تخلى بينى وبين النوم ، وكأنما كلفت نفسك أو كلفك غيرك أن توقظى إذا تقدم الليل لتظهرنى من الأمر على ما كان خليفاً أن يفوتنى إن استسلمت للذة الأحلام... ! ابعث نداءك سريعاً بعيداً أولاً تبعثه فقد أيقظتنى ، وما أرى أنى سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالذى شهدته أمس حين كانت أختى ماثلة ذاهلة كأنما تنتظر أخبار السماء . إنى لأشعر بأنى سأراها ماثلة ذاهلة حيث رأيتها أمس ، وإنى لأتسألهنهنس إليها ، ولكن ندامك لا ينقطع ، إن لك لساناً... !

ماذا ! إن جو الليل المظلم الساكن المهيب ليس خالصاً لك هذه الليلة كما تعود أن يخلص من قبل . ماذا أيقظ الطير ؟ فإنى لأسمع خفق أجنحتها ، وأحس كأنها متشرة قد خرجت من أوكارها حائرة مضطربة في هذا الجو الخفيف . ماذا أيقظ الكلاب ؟ إنى لأسمع نباحها قوياً متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعها .

ماذا أيقظ الناس ؟ إنى لأحس حركة خارج الدار ، وإنى لأسمعهم يتداعون ويتنادون ، وإنى لأشعر كأنهم يسرعون إلى غاية لا أعرفها .

ماذا أيقظ من في الدار ؟ إن الحركة من حولى لتكثر وتختلط وتشتد ، وإنى لأشعر بالفزع قد انتشر في الجوكما يتشر الدخان الكثيف . وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز ما زال متصلاً سريعاً بعيداً ، كأنك لم توكل بإيقاظي وحدي ، وإنما وكلت بإيقاظ الناس جميعاً والأحياء جميعاً . انظر ! إن كل شيء قد استيقظ من حولك ، ولكن نداءك ما زال متصلاً سريعاً بعيداً . أتريد أن تتحدث إلى النجوم ؟ ولكنى أنهض لكل ما أحس حولى من حركة وضجيج وعجيج واضطراب ، فأسأل أختي هذه المائلة الداهلة : ماذا حدث ؟ ولكنها لا تجيب كأنها لم تسمع شيئاً ، فياخلنى حتى وغيظ ، وأهزها هزاً عنيفاً وأنا أصبح بها : ماذا ! ألا تسمعين ؟ ألا ترين ؟ هنالك تنبه وتجيبي في شيء من الوجل : ماذا تريدن ؟ فأتركها مستيشة منها وأهبط فناء الدار حيث اجتمع النساء يتسألن ويتجاوبن ، ويشند بينهن لفظ مختلط لا يكاد ينقضى .

هناك أجد أمناً بين هؤلاء النساء ، شاهدة كالأغابة ، ومستيقظة كالنائمة ، تسمع ولا تقول . فإذا سألتها عما حدث أجابتنى في صوت

هادئ حزين : زعموا أن رجلاً قد قُتِلَ قريباً من القرية يقال له عبد الجليل ، وقد جاء الصريخ إلى العمدة فأيقظ رجاله وهو يستحثهم لالتماس القاتل . وقضينا بقية الليل ساهرات نسمع ما يصل إلينا من الأخبار التي إن ابتدأت فلا نهاية لها ، وهي أخبار القتل في المدن والقرى وفي الحقول وعلى الطريق العامة . وقد زعم من حدثنا من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذي ضرع الليلة قد كان أمراً محتوماً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخفراء في القرية ، وكان قوياً شديداً البأس عظيم السطوة ، وقد حمى القرية من اللصوص والمعتدين ، وكانت له في القوم آثار لم تُنسَ ، فهم يطلبونه بها . وقد اضطربت القرية منذ ليال لأن هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل أكثره على بيت من البيوت ، فجعل يطرق بابه طرْقاً عنيفاً ، ويدعو صاحبه بصوت كأنه الرعد أن أفتقَ أيها المجنون فإن اللصوص قد اقتحموا عليك الدار . فذعر أهل البيت لهذا الطرْق وهذا النداء ، وأسرع الرجل إلى الباب ، فما راعه إلا شيخ الخفراء يبرق ويرعد ويلح في النذير ، ثم دخل الدار وطاف بمحجراتها وغرفاتها يلحتمس اللصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد استيقظ الناس واجتمعوا حوله وحول صاحب الدار ، وهو يقسم ويغلظ في القسم لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

منذ تلك الليلة تحدث أهل القرية بأن شيخ الخفراء قد تعرّض للموت ، وأنه إنما رَوَّع أهل تلك الدار ليلجأ إليهم ويأمن عندهم من طالبيه ، ومنذ تلك الليلة استيقن أهل القرية أن قوماً قد نذروا دم شيخ الخفراء ، وليسوا بمقلعين عنه حتى يقتلوه . وما هم أولاء قد وفوا بالنذر

وَقَتَلُوا عَبْدَ الْجَلِيلِ. وَهَاهُوَذَا الْعَمْدَةُ يَفْرَقُ رِجَالَهُ فِي كُلِّ صَوْبٍ ، بِأَمْرِهِمْ
بِاقْتِحَامِ هَذِهِ الدَّارِ ، وَبِالْبَحْثِ عَنْ فُلَانٍ وَالْقَبْضِ عَلَى فُلَانٍ وَالتَّوْتُقِ
مِنْ فُلَانٍ . وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هَائِجَةٌ مَائِجَةٌ تَسْأَلُ وَتُجَبِّحُ ، وَتَسْتَقْصِي وَتُرْتَاعِ .
وَهَذِهِ جِثَّةُ عَبْدِ الْجَلِيلِ طَرِيحَةٌ غَيْرُ بَعِيدٍ مِنَ الْجَسْرِ ، قَدْ فَارَقَتْهَا
الْحَيَاةُ بَعْدَ احْتِضَارٍ طَوِيلٍ ثَقِيلٍ ، وَقَدْ قَامَ عِنْدَهَا الرِّجَالُ يَحْفَظُونَهَا فِي
مَكَانِهَا حَتَّى تَأْتِيَ الشَّرْطَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَحَتَّى يَأْتِيَ الْمُحَقِّقُونَ . وَقَدْ أَقْبَلُوا
جَمِيعاً بَعْدَ أَنْ ارْتَفَعَ الضُّحَى ، فَأَقَامُوا حَوْلَ الْجِثَّةِ حِيناً يَسْأَلُونَ وَيُشْرَحُ
الطَّبِيبُ . ثُمَّ أَقْبَلُوا نَحْوَ الْقَرْيَةِ وَنَسَاءَ الدَّارِ مُشْرِفَاتٍ يَنْظُرْنَ إِلَيْهِمْ ، وَهُمْ
يَسْعَوْنَ إِلَى بَيْتِ الْعَمْدَةِ لِيَشْرَبُوا الْقَهْوَةَ ، وَيَمْضُوا فِي التَّحْقِيقِ ، وَيَصِيبُوا
شَيْئاً مِنْ طَعَامٍ .

وَأَنَا مُشْرِفَةٌ أَنْظُرُ مَعَ النَّاضِرَاتِ . وَلَكِنْ مَاذَا ؟ إِنِّي لِأُتْرَاجِعُ مُسْرَعَةً
وَقَدْ اضْطَرَبَ قَلْبِي اضْطِرَاباً لَا يَكَادُ يَسْتَقِرُّ مَعَهُ فِي صُلْبِي ، وَقَدْ تَكَلَّفْتُ
جَهْداً عَنِيفاً لِأُجْبِسَ صَبِيحَةً كَادَتْ تَنْبُعُ مِنْ فَمِي ، وَهَذِهِ أُمِّي تَجُرُّنِي
إِلَيْهَا لَا تَقُولُ شَيْئاً وَلَكِنَّا تَهْبِطُ مَعِيَ فَنَاءَ الدَّارِ ، ثُمَّ تَهْدِئُنِي بِبَعْضِ الشَّيْءِ ،
ثُمَّ تَقُولُ لِي كَالْهَامِسَةِ : إِيَّاكَ أَنْ تَظْهَرِي أَوْ أَنْ تَدْعِي هَذَا الْمَكَانَ فَإِنَّهُ
وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتَ لَمْ يَتَصَرَّفْ حَتَّى يَسْتَصْحَبَكَ . ذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ الْمَأْمُورَ .
لِمَاذَا أَكْذَبْتُ نَفْسِي ! لَقَدْ هَمَمْتُ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنْ أَسْعَى إِلَيْهِ وَأَنْ
أَسْأَلَهُ عَنْ خَدِيجَةٍ ، وَأَنْ أُلْحِقَ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَسْتَصْحَبَنِي لِيَرُدَّنِي إِلَى تِلْكَ
الْحَيَاةِ النَّاعِمَةِ وَلِيَحْمِنَنِي مِنْ هَذَا الظَّلَامِ الَّذِي كُنْتُ أَدْفَعُ إِلَيْهِ عَلَى غَيْرِ
إِرَادَةٍ وَلَا رَأْيٍ .

نَعَمْ ! لَقَدْ هَمَمْتُ بِهَذَا كُلِّهِ ، وَلَقَدْ كَدْتُ أَفْعَلُ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ

أمى وما كانت تستصحب من بؤس قديم ، ورأيت أختى وما كانت
تستقبل من بؤس حديث ، فأثرت شقاء هاتين الشقيتين على ما كنت
أحب لنفسى من الخير ، وبقيت معهما أنتظر ما تضمر لها الأيام .

٨

آمنة . . . آمنة . . . أقبل . هذا صوت أمنا ينهى إلى ، وقد انتحيت
ناحية مع زئوبة وخضرة على السطح ، نتحدث ألواناً من الحديث ، وأختى
جالسة غير بعيد قد شغلت عنا بما يملأ نفسها من همّ وحزن ، فإذا
سمعت الصوت أسرع إلى أمى فى الناحية الأخرى من سطح الدار ، فإذا
هى قائمة قد ظهر عليها النشاط وانجلت عن وجهها سحابة الحزن التى
كانت تُغشى ، وهى تبسم وتشير يديها وتقول لى : انظرى انظرى ! هذه
والله إبل « بنى وركان » . فأنظر فأرى أعرايياً كأنه الشيطان وقد أناخ
قريباً من الدار جليين عظيمين وأخذ يحيط عن أحدهما بعض الأثقال .
أمى مستبشرة متهللة تشير وتلحّ فى الإشارة وتقول : ألم تعرفى خالك
ناصرأ ؟ ألم تعرفى هذين الجملين ؟ عرفت خالى ، فإ أكثر ما كنت ألقاه
أيام الطفولة والصبا ، وما أكثر ما كنت أخافه حين ألقاه ، وأكره
منه هذا العنف الذى يتلو كل من اتصل به ، وهذه اللهجة القاسية التى
يمتاز بها حديثه ، وهذا الصوت القاطع الذى يلقى إليك الكلمات فى
حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمح بجidal !
نعم عرفت خالى ناصرأ ، وذكرت أنى كثيراً ما كنت أتقيه إذا لقيه ،

ولا أستجيب لدعائه إذا دعاني إلا كارهة ، ولا أطمئن إلى ما كان يظهر لي من مودة وعطف وحنان ، ولا أقبل إلا راغمة ما كان يقدم لي أحياناً من البلح والعجوة ، يريد أن يتملقني ويترضاني .

نعم ! عرفت خالي ناصراً ، وذكرت أنني كنت سيئة الظن به ، شديدة النفور منه ، وأني كنت ألوم نفسي أحياناً على سوء ظني وشدة نفوري. حتى إذا صُرع أبونا ورأيت كيف استقبل أمي بأبناء هذا المصراع وكيف قسا عليها وعلينا ، ولم يفكر في أنها أيم وفي أننا يتيمتان ، وإنما فكر في الأسرة وحديث الناس عنها ، وما يجرّ عليها هذا الخطب من عار . . .

ثم لم تكد تمضي أيام حتى أقبل ذات صباح ، مظلم الوجه قاسي اللحظ جافي اللفظ ، فأقنع أمنا بوجوب الرحيل ، وأنبأها بأنه سيعد لهذا الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ويبلغنا مأمنا في قرية من قرى الريف .

ثم جاء هذا اليوم الذي أخرجنا فيه من دارنا ، وأبعدنا فيه عن قريتنا ونفانا فيه من أرضنا ، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة وراء البحر ثم أسلمنا إلى القضاء ، وانصرف عنا راجعاً إلى حيث ينعم مع الأسرة بالدعة والخفض وبالأمن والهدوء .

منذ ذلك اليوم لم أشك في أن رأيي فيه لم يكن خاطئاً ، وأن حكماً عليه لم يكن قاسياً ، وأن نفوري منه لم يكن إلا صورة صادقة لما ينبغي لهذا الرجل الغليظ في قلب فتاة ضعيفة بريئة وادعة ، لم تجن على أحد شراً ، ولا تفهم أن يجنى عليها أحد شراً . وكانت أمي وأختي تتبعانه

ببصريهما محزوبتين لفراقه أشد الحزن ، وكأنه كان يمثل في نفسيهما صورة الوطن الذى نفينا عنه . أما أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذى كان يوجه بصره شطره ، ولكنى لم أكن أراه لأنى لم أكن أحفل به .

إنما كنت أحاول أن تنفذ عيني من هذه المسافة البعيدة والأمد المنفسح إلى هذه القرية المطمئنة التى أخرجت منها لإخراجاً ، لعلى أرى دارنا ، ولعلى أرى هذا الفناء المنبسط أمامها ، والذى كنت ألعب فيه مع أنرابى من الغلمان والصبيان ، ولكنى لم أكن أرى القرية ولم أكن أرى الدار ، وإنما كنت أرى هذه الهضاب المرتفعة فى السماء بعض الشيء ، وأقدر أن قريتنا تقوم هناك على هضبة من هذه الهضاب . وكنت أرى هذا الخط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل الجميل الذى ينبسط من دون هذه الهضاب ، والذى كنت لا أمضى فيه قليلاً حين نفينا من قريتنا إلا أحسست كأنى أترك فيه قطعاً من نفسى أنثرها فى أرضه الخضراء نثراً .

نعم ! عرفت خالى ناصراً وهو قائم بإزاء جمليه بعد أن وضع أثقاله كأنه الشيطان ، وما تصورته قط إلا شيطاناً . ومنذ هذه اللحظة التى رأيته فيها يضع أثقاله وسمعت فيه يسأل عن صاحب الدار ، لم أزد إلا يقيناً بأنه شيطان . سألت خالنا عن صاحب الدار . وكان رجال العمدة قد دخلوا عليه فأنبأوه بأن رجلاً أعرايياً عليه مظاهر القوة والبأس والوقار والثراء ، قد أقبل يسأل عنه ، فخفت العمدة لاستقبال ضيفه ، وما زلت أراه يستقبل الأعرايى باسماء وادعاء ، والأعرايى يحيه فى غلظة وجفوة ، ثم يقول له متعالياً : إن النبى قبل الهدية يا عمدة . يقول ذلك ويشير إلى أثقاله التى حطها عن جمليه إشارة المكبر لها الدال بها ، والعمدة يدعو

بعض رجاله ويشير إليهم أن يحملوا هذه الأثقال وأريحوا هذين الجملين . ثم يدعو ضيفه الأعرابي ، رفيقاً به شاكرآ له ، إلى الراحة والدخول معه إلى الدار . وقد اطمأنت الدار بالأعرابي ، ولقي من بكرم مضيفه وبشاشته ما أرضاه ، فلما مضت ساعة أو ساعات والناس مجتمعون حول عمدتهم يخوضون فيما تعودوا أن يخوضوا فيه من الحديث ، قال فجأة : إن لنا عندك ودائع يا عمدة ، فارددْ علينا ودائعنا ! قاله يأمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها . قال العمدة : ودائعك محفوظة لك ، مردودة عليك يا شيخ العرب ، فما ذلك ؟ قال الأعرابي : امرأة أقيلت منذ أيام ومعها فئتان ، سألتك الضيافة فأويتهما وآويت ابنتها وأحسنتم لقاءهن وأكرمت مثواهن ، ونحن أعرف الناس بحق الكرام . قال العمدة : وما أنت وهذه المرأة وابنتها ؟ قال الأعرابي : هي أختي . قال العمدة : فقد نزلن على الرحب والسعة ، وما فعلت إلا ما كان يجب على ، وما نفع هذه الدور إذا لم تفتح لإيواء الغرباء ! ولكن ودائعك يا شيخ العرب لن تردّ عليك حتى تقيم بيننا حيناً فتسمع منا ونسمع منك ؛ فإن حديث الأعراب يلذنا ويرضيّنا ، وقد بعدَ عهدنا به منذ رحل عنا سعيد وأصحابه ، وكانوا قد خيموا في ظاهر القرية أشهرآ ، ثم ارتحلوا لا عن قلى ولكن عن رغبة في الرحيل . واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين هذا الأعرابي حتى انقضت ساعات السمر .

أما أنا فلم أطعم النومَ في هذا الليل الطويل الثقيل ؛ لأن أختي لم تطعم فيه النوم ، ولم يحتاج طائرى العزيز إلى أن يوقظنى بندائه السريع البعيد ، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أنى ساهرة مؤرقة فلم يحتاج إلى تنبيه ، فانطلق فى الجوّ الفسيح ينه غيرى من الذين لم تورقهم الهموم والأحزان .

عدتُ إلى أختي كثيفة ضيقة الصدر متكلفة مع ذلك أن أخفى ما أجد من الكتابة وضيق الصدر ، فأنبأتها بمقدم خالنا وبأننا مرتحلات فى أكبر الظن إذا أسفر الصبح ، وجعلت أزيّن لها الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبثة بيننا وبين البحر ، والنظر إلى هذا الخط من الماء الذى يفصل بيننا وبين بلادنا فى الغرب ، ننظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا إليه مدبرات عنه ، ثم نعبّر هذا البحر ونعشى على هذا السهل الجميل النضر الذى تلتقى فيه أرض الصحراء المجذبة وأرض الريف المخصبة ؛ ثم نصعد نصعيداً هيناً كأنما نرقى فى الدرج إلى هذه الهضبة الجميلة التى تقوم من ورائها قرينتنا وادعة هادئة كأنها تحتوى بها من كل طارق يأتيا من الشرق . أنا أزيّن لها هذا كله بلسانى ، وأتكلف لها مظهر المراحة له المغبطة به المقبلة عليه فى سرور ولذة وشوق ، والله يعلم إن كنتُ لحزونة أشد الحزن مبتهسة أشد الابتاس ، تنازعنى نفسى إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التى ترامت أطرافها ، وامتدت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمة بما فيها

من حضارة وترف وثراء . والله يعلم أنى لم أكن مقبلة على هذا الغرب الذى سأدفع إليه إذا أسفر الصبح إلا برغى وعلى أشد الكره منى . ما كنت أحفل بالحقول المنبتة ، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء ، ولا أجد كلفاً بهذا السهل الجميل النضر ، ولا أجد رغبة فى التصعيد الهين إلى هذه الهضبة المهيبة ، ولا أجد حنيناً إلى هذه القرية الوادعة التى درجت فيها . إن هناك لحقولاً أخرى منبتة نحو الشرق تتحدر إلى المدينة فى دعة وفور وتكسر جميل ، وإن هناك لخطاً عريضاً من الماء أشد روعة وجمالاً وإثارة للسحر فى القلوب من هذا الخط الضئيل النحيل يسبونه بجرأ وما هو بالبحر ، وإنما هى قناة لا يصح أن تذكر مع النيل . وإن هناك لدوراً شاهقة واسعة مترفة تحيط بها الحدائق البديعة ، وتلد الإقامة فيها والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهم بين ما يحيط بها من الأشجار والأزهار . وإن هناك افتاة جميلة وسيمة رقيقة هى التى أحن إلى لقائها وأتحرق على تجديد العهد بها . وماذا أصنع فى تلك القرية ، وأنى حياة تها لى فيها ! كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذى جعلت أخرج منه قليلاً قليلاً حتى امترت من أمى وأختى وأخذت أشعر بأنى أحسن منهما فهماً للحياة ، وأصدق منهما حكماً على الأشياء ، وأشد منهما صبراً على الخطوب ، وأمهر منهما فى التخلص من الشدائد والكوارث . أليست أدنى منهما إلى الطفولة ، وأجدر منهما أن أكون غرة غافلة ؟ ومع ذلك فإنى أنظر إليهما كما تنظر الأم إلى صبيتين ضعيفتين تحتاجان إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون ! كذلك كنت متناقضة أشد التناقض ، مختلفة أشد الاختلاف ،

ازين لأختي ما أبغضه أشد البغض ، وأمى نفسى بما ليس إليه من
سبيل . وكثيراً ما خطر لى خاطر أفلم أقف عنده لأنه كان يظهر لى
سخيفاً مستحيلاً ؛ كثيراً ما خطر لى أن أتغل من حولى إذا تقدم
الليل ، وأن أنسل من الدار وأن أهم على وجهى نحو الشرق منسابة بين
المزارع والحقول والقرى كما تنساب الحية الدقيقة ، حتى أبلغ المدينة مع
الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحب أن أكون .

لم أقف عند هذا الخطر الذى كان يمر بنفسى من حين إلى حين
مرّاً سريعاً فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف ؛ لأن الاستجابة له لم
تكن ميسورة . وكيف الانسلال من الدار والأحراس عليها قياماً وكيف الانسياب
فى الريف ؟! وماذا تصنع فتاة وحيدة فى ضوء النهار فضلاً عن ظلمة الليل !
وكيف لى بترك هاتين البائستين تحملان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب ؟
أقضى أقضى يا آمنة ! وانسى نفسك ولذتك وراحتك ، وانظرى
إلى هذه الفتاة الجالسة أمامك ، إن ذهولها ليزق القلب ، وإن شحوب
وجهها ليذيب النفس ، وإن هذه الدموع التى أخذت تنحدر من
عينها فى سكون وصمت لخليفة أن تصرفك عن كل تفكير إلا فيها ،
وعن كل عناية إلا بها . ألقى ألقى يا آمنة فى تزيين الرحيل ، وفى
التحدث بما منجد فى القرية من أمن ، وبما سنستقبل فيها من هدوء
واستمتاع بالحياة الراضية ، لا نخدم أحداً وقد يخدمنا الناس .

ولكن أختى لا تسمع لى أو هى تسمع ولا تفهم عنى . هى مثلى
لا تحب الرحيل ولا تحن إلى الغرب ، وإنما تحن إلى هذا الشرق الذى
تركت قلبها فيه : هنالك فى ذلك البيت الجميل الذى تحيط به هذه
الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف ، ويعيش فيه
ذلك الشاب المترف الذى يسمونه الباشمهندس .

في هذا البيت تركت أختي قلبها . وهي من أجل ذلك ذاهلة ذهولاً متصلاً ، وهي من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو تردّ علينا جواب ما تلقى عليها من سؤال . كنت أحسبها محزونة لما تورّطت فيه من خطيئة ، وما أشك في أنها أحست هذا الحزن ، وما أشك في أن الندم قد عذبها تعذيباً ، لكنني بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبينت من أمرها ما تبينت استقبلت الصبح ونفسي تذوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التي تنظر وراءها فترى حياً مضيقاً ، وتنظر أمامها فترى خوفاً مروّعاً ، وتود لو استطاعت أن تعود أدراجها . إلى حيث الحب وما يمكن أن يستجيع من نعيم أو يؤس ومن سعادة أو شقاء . ولكنها تدفع إلى أمام ، تدفع إلى حيث الخوف والروع ، وإلى حيث اليأس والقنوط ، تدفع فتدفع ، لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئاً ينمّ عن مقاومة أو ممانعة . يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتحوّحظها من الشخصية والإرادة محوّاً ، هذه القوة التي يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمان ! أنا أكذب على أختي فأزيّن لها ما أكره ، وهي لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وإنما أسلمت نفسها للقضاء واستيقنت أن خير ما في حياتها قد انقضى منذ أمرت أمنا بترك المدينة ، فلم نخالف من أمرها وإنما استجبنا طائعتين . ولكن ميم كانت تخاف ؟ وما هذا الروع الذي كانت آياته تبدو على وجهها بين حين وحين ، والذي كان يبعث في جسمها من وقت إلى وقت رعدة قوية توّشك أن تدفعها إلى الوثوب ؟ إن في هذا الغرب الذي ندفع إليه خموداً وخمولاً ويأساً وقنوطاً ، وكل هذا يسوء ، وكل هذا يملأ القلب حزناً وأسى ! ولكنه لا يروع ، ولا يبعث في النفوس هذا الجزع ، ولا يثير في الأجسام هذه

الرعدة العنيفة المخيفة . كلا ! لم تكن مخطئة ولا غالية حين كان الروح يملأ نفسها ، فقد كانت تعلم ما لا أعلم ، وكانت تقدر ما لا أقدر ، وكانت تمر أمامها صور حزينة شاحبة ، ممتعة مذكورة باعثة للذعر ، صور فتيات ثلاث لم أسمع بهن قبل هذه الليلة ، ولكنهن كن حديث المدينة منذ عام وبعض عام ، خرجن من المدينة كما خرجنا نحن ، أو أخرجن منها كما أخرجنا نحن ، ثم لم يعدن إليها ولم تعد إليها أسرهن ، وإنما عادت إليها أحاديثهن ، كلها خوف وروح ، وكلها بأس وقنوط ، وكلها جزع وفرع ، وكلها يلونها الدم وقد يساقط منها قطرات .

ما أنت وهذه الخواطر الدامية أيها الفتاة التعسة ؟ ! إنما ترحلين بين أملك وأختك ونحالك إلى قريتك التي ولدت فيها لتعيشي بين قوم أحبك وأحببتهم ، وما زالوا يحبونك ولقد كنت تحبينهم منذ حين ، أتذكرين ! لقد كنت أكثرنا حديثاً عنهم وحيناً إليهم في المدينة كلما التقينا . ما بالك تخافين منهم وتشفقين من لقاءهم وإنك لواجدة عندهم من الحماية والأمن ما لا سبيل إليه في حياة الغربة والعمل في هذه البيوت التي لا يعطونها علينا حب ولا ود ؟ ! ولكنها لا تسمع لي أو لا تفهم عني ، وإنما هي مشغولة بما تركت من حب وبما تستقبل من روح ، تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذي أحبته ، وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفةً خيفة مروعة مثيرة للروح . أما هذه التي تسمى أمينة فقد احتز رأسها احتزازاً . وأما هذه التي تسمى مارتا فقد شق صدرها شقاً . وأما هذه التي تسمى ملزمة فقد يقال إنها دفنت حية ولقيت حتفها مختنقة في التراب . ما الذي ينتظرني من ألوان الموت هذه ؟ ! وأنا أرد عنها هذه الخواطر جاهدة ، أتلطف حيناً حتى أقبلها وأداعبها ، ثم أشتد

في التلطف بها حتى أستعطفها بما أسفح من دموع ، ثم أعنف وأغلو في العنف وأنذرها بأني سأقص خوفها كله على أمنا وخالنا ، وسأستوثق لها منهما أو سأمتنع عليهما فلا أتبعهما ولا أدعها تتبعهما ، وسأستجير لنفسى ولها منهما بهذا الرجل الكريم الذى نحن ضيف عنده . ولكنها إذا سمعت منى ذلك ثابت إلى نفسها وردتني إلى الأناة والمهل ، وأظهرت التجلد والصبر ، وتكلفت ثقة لا تلبث أن تضطرب واطمئناناً لا يلبث أن يزول .

يا لك من ليل طويل بغيص ، لم نعرف فيه راحة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كنا فيه نهب الندم المفضى على ما فات ، والخوف المهلك لما هو آت ، والضيق الشديد بما نحن فيه ، والليل يطول ويطول ، كأنه يحمل أثقالاً لا قبل له بها ولا قدرة له على المسير معها ، فهو يزحف زحفاً بطيئاً أشد البطء ، والهم يغشى نفوسنا تغشية ، وهذه الخواطر المنكرة تلور في رؤوسنا دوراناً متصلاً يكاد يفنيها . ولكن ما هذا الصوت الذى يشق هذا السكون الذى نحن فيه شقاً ويردنا إلى أنفسنا فزعتين جزعتين كأنه أخرجنا من نوم عميق ؟ إنه صياح الديك يودع الليل ويؤذن بمقدم الصبح . بماذا تصبح أيها الديك ؟ وبماذا تريد أن تنبئنا أو تنبأ لنا ؟ قالت أخفى : أتذكرين صاحبة الودع ؟ إنها رأيت بين رجلين أحدهما آذاني وسيحبنى والآخر أحبنى وسيؤذنى ، ألم تفهمى عنها شيئاً ؟ قلت : وماذا تريد أن أفهم عن هذه العجوز الحمقاء ومن هذا السخف الذى تردده في كل مكان وتقدمه إلى الناس جميعاً ؟ كل رجل عندها بين امرأتين أو بين نساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال . قالت

أختي : فلإني أرى هذين الرجلين رأى العين وأعرفهما كما أعرفك ، وستريهما وستعرفيهما ، وستبغضين أحدهما أشد البغض وستحبين الآخر حباً كثيراً ! وهذا الهواء يضطرب ويضطرب معه صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة ، والناس يستيقظون ويخرجون من منازلهم أفراداً بين ذاهب إلى المسجد وذاهب إلى الحقل ، ونحن نستقبل هذا الصبح الشاحب بنفوس شاحبة وقلوب واجفة ووجوه حائلة . لو استطعنا لأحجمناه ، ولكننا ندعى إلى الإقدام ولا نستطيع امتناعاً على هذا الدعاء .

هذان الجملان قد هيئا للرحيل . وهذا خالنا قد قام عندهما كأنه الشيطان ، وهذه أمتنا تدعونا إلى الخروج في رفق . وها نحن أولاء نودع من عرفنا من أهل الدار . ثم تمضي ساعة وساعة وإذا ضوء الضحى يغمرنا في هذا السهل الرينى الجميل الذى تمتد فيه عن يمين وشمال هذه الحقول النضرة ترتاح إليها النفوس والأبصار . ولكن هناك نفوساً لا ترتاح وإنما هي مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإنما هي زائغة دائماً... إلى أين يمضي بنا هذان الجملان !

١٠

إنما بمضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث العز والمنعة ، وإلى حيث نقضى حياتنا كما تعود أمثالنا من فتيات القرية أن يقضين حياتهن هادئات ناعمات ، حتى إذا تقدمت بهن السن وأدركتهن ميعه الشباب ونصرتهم سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى

المجاورة ، فأصبحت كل واحدة منهن سيدة في البيت أو سيدة في الحيام ، واستقبلت حياة فيها الجد والعمل والكد ، وفيها الأبناء والبنات وما يستبعون من بهجة وقرّة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظري يا ابنتي الكبيرة إلى كل هذا النور الذي يصبه الضحى علينا صبباً واسعاً يغمرنا ، والذي نمضي فيه كأنما نخوض بلجة البحر . انظري إلى هذا النور الذي يغمرنا ويغمر السهل من حولنا ؛ وانظري إلى هذه الحقول تنبسط عن يمين وشمال لا تكاد تنتهي ؛ وانظري إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفتيان والفتيات وقد ملأهم النشاط ، وبعث فيهم الجدة حياة لا حد لها ، فهم يذهبون ويبحثون وهم يعملون لا يعرفون كلالا ولا سأمأ ، وأصواتهم ترتفع لا بالشكوى ولا بالأنين وإنما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذي يبعث في هذا الجو نغمات ساذجة حلوة ، والذي يضور الأمل في غير إسراف ، والرضا في غير استكانة ، والاطمئنان في غير حزن ، وحب العمل على كل حال ، والثقة بالله على كل حال أيضاً .

انظري يا ابنتي واسمعي ، ثم سلى نفسك : أتجددين فيما ترين أو فيما تسمعين ما يثير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى يأس ؟ كل شيء آمن وكل شيء يدعو إلى الأمن ، كل شيء هادئ وكل شيء يدعو إلى الهدوء . إن ظلمة الليل لمنكرة وإنما لتحب الخوف وتثيره ، وإنما لتبعث الأشباح من مكانها ، وإنما لتغري القلق بالنفوس وتسلب الهم على القلوب . . . لقد كنت يا ابنتي تثيرين في نفسي مثل ما كان يثور في نفسك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى وظلمة الليل تغمرنا من كل مكان . فأما الآن وقد انجلت هذه الظلمة وأصبحت لا أمد عيني إلا

رأيت ، ولا أمد أذن إلا سمعت ، فإنى لأضحك منك ومن تلك الهواجس
التي كانت تروعك ، ومن تلك الأشباح الحمراء التي كانت تترامى لك
وتمثل أمامك . وإنى لأضحك من نفسي ومن انقيادها لك
بعض الشيء وتأثرها بك إلى حد ما . انظري واجتهدي في أن تستحضري
الأشباح الحمراء ، إنها لا تستطيع أن تظهر ولا تجرؤ على أن تترامى فضلاً
عن أن تمثل أمامك أو أن تسايروك . إن الأشباح لا تحب النور ولا تستطيع
أن تظهر في وضوح النهار ، إنما الأشباح والخوف والفزع واليأس بنات
الليل ، نطمئن إليه ويطمئن إليها ، تستظل به وييسط عليها ظله المظلم
الساكن الخفيف ، فإذا ابتسم الصبح وأشرق الضحى واستيقظت الحياة
ذابت كل هذه المروعات ، وانجابت مع الظلام ، فلم يبق لها أثر في
نفس ولا سلطان على قلب . انظري إلى هذا الضحى المشرق ، وأفيضى
بعض إشراقه على نفسك . انظري إلى هذه الحياة التي يملؤها النشاط
فأفيضى منها على قلبك . أألسن تحسين الحاجة إلى أن ترفعي صوتك
بالغناء ، كما يتغنى هؤلاء الشباب عن عيمن وشمال ؟ ! ثم انظري إلى أمنا
وخالنا ، إن جملهما ليسعى بهما مرحاً شديد النشاط ، وإنهما ليتحدثان
في هلهو وأمن واستبشار وشيء من الحنان كأنما يذكران أيام صباهما
وشبابهما ، وكأنما يودان لو رجعت بهما الأيام إلى مثل هذه السن التي نحن
فيها . أترين عليهما مظهرًا من مظاهر الرية أو آية من آيات المكر ، أو دليلاً
من دلائل الكيد ؟ كلا ، إنهما ليمترجان بما حولهما فإذا هما حياة وأمن
وأمل ، فلنكن مثلهما بحياة وأمنًا وأملًا .

ويسلك حديثي هذا سبيله إلى قلب أختي كما يسلك النور والحياة
سبيلهما إلى نفسها ، وإذا هي نطمئن بعض الشيء لا تبسم للحياة ولكنها

لا تسرف في العبوس ، إنما هي كآبة ملحة تغشى نفسها ولكنها كآبة هادئة لا تثير روعاً ولا جزعاً ولا يأساً . والطريق تمضي بنا مستقيمة جميلة يجيبها إلى النفوس هذا النور القوي الذي يزداد قوة وصراحة وإلحاحاً كلما تقدم النهار ، وهذه الحقول الخصبة يملؤها هذا النشاط الحصب وهذا الغناء الحلو يرتفع في الجو ، ويمتدح بما يملؤه من الضياء والهواء ، ونحن لا نجوز قرية إلا دفعنا إلى قرية أخرى ، حتى إذا تقدم النهار وكدنا نبلغ العصر ، وكنا قد انتهينا إلى بعض القرى قال خالتنا : لقد آن لنا أن نسريح ساعات ، ولست أرى بأساً بأن نستأنف السفر إذا أقبل الليل ، فقد أشرفنا على بلادنا وما أرى أن الليل سيتتصف حتى نكون قد بلغنا البحر عند بني فلان فإذا أسفر الصبح عبرنا إلى أرضنا ولا يرتفع الضحى حتى نكون قد انتهينا إلى بني وركان .

ثم يعرج بنا على القرية وينبئ بنا عند دار العمدة وننزل من هذه الدار أحسن منزل ، وإني لشديدة الرغبة في أن أنفق الليل حيث أنا ، وإن أختي لتشاركني في هذه الرغبة ، ولكن خالتنا قد أزمع المسير مع الليل ولم تراجعنا أمنا ولم تمتنع عليه ، ولم يستطع مضيفنا أن يثنيه عما اعتزم ؟ وبينما كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا مما قدم إلينا من طعام كان خالتنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلزم بعض من كان يعرف في قرية مجاورة ، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة ، ويقبل الليل ويبسط ظلمته سفلًا ، ونكاد نستشس من استئناف السفر ونكاد نعلمن إلى البقاء حتى يسفر المسبح .

ولكن هذا خالتنا قد أقبل ، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالنداء

إلى الرحيل . وما نحن أولاء نستجيب لندائه ، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ، ولكن خالتنا إذا عزم أمضى . وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الجمelan قد دفعا بنا دفعا إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسداً ، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شيء وانقطعت الأصوات ، إلا هذه التي تأتينا من بعيد بين حين وحين فتنبهنا ، فإذا هي أصوات الكلاب تنبح في القرى البعيدة ، وإلا هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التي تحيط بنا وتمتج بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً ، وهي أصوات الحشرات والضفادع المنبثة في الحقول وعلى شواطئ الأقبية .

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمين أو من شمال فننكره ونرتاع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء البوم ، وربما ارتفع صوت خالتنا ببعض غناء البدو فرجع ترجيعاً جميلاً خفيفاً معاً ، ولكنه لا يتصل إلا قليلاً ثم ينقطع . ويمضي خالتنا في حديثه مع أمنا ، أو يفرق خالتنا وتفرق أمنا في الصمت العميق ، وأنا وأختي نسمع لهذا كله ونتحدث في شيء من الهمس الخائف الوجل كأنما نفر من شيء نخافه أو نقدم على شيء نخشاه . ومن يلربى ، لعلنا كنا نتنظر ظهور الأشباح الحمراء ، ونشفق من أن نترأى لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إليها أو نتحدث عنها ؛ والجمelan يسعيان بنا سعيًا فيه لإسراع ولكنه إسراع لا يكاد يحس ، وكأنهما مثلنا يفران من بعض ما يكرهان فهما يجدان في السعي ! وسكون الليل يثقل شيئاً فشيئاً ، وظلمة الليل تزداد كثافة

من حين إلى حين ، ونفوسنا تزيد أن تهيم في هذا السكون وتختلط بهـ
الظلمة وتود لو احتواها النوم ، ولكن أننى لها أن تهيم في سكون الليل وهى
مضطربة وأننى لها أن تختلط بظلمة الليل وفي جنباتها هذه الأنوار الضيئة
الشاحبة أنوار التفكير في غد والتذكر لأمس ، والرؤية فيما نحن فيه ؟ !
وأننى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً وتدنو منا
قليلاً قليلاً ، وتثير فينا هذا الإشفاق البغيض الذى لا يستطيع أن يكون
أمننا ولا يبلغ أن يكون خوفاً صريحاً ، وإنما هو قلق نحى ماكر يفسد من
حواله كل شيء ؟! ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه فنغمض
أبصارنا حتى لا نراها ونسد آذاننا حتى لا نحس قربها منا !
والحملان يسعيان في جد ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور . ثم
يرتفع صوت خالنا غليظاً مخيفاً ، كله شر وكله نكر وكله نذير :
هنا يجب أن نترل . وما هى إلا أن يناخ الحملان ولم تستطع
واحدة منا أن تقول حرفاً أو أن تنطق بكلمة أو أن تفكر في شيء ، وإنما
هو ذهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملأ نفوسنا كما أطبقت علينا
وملأت نفوسنا ظلمة الليل . وهذا خالنا قائم كالشيطان ، وهو يأمرنا في
غلظة وعنف أن نترل فلن يمضى الحملان أمامها قيد أصبع .

وها نحن أولاء نترل مضطربات ، ونسعى متعثرات ، وهذه أمننا
نريد أن تسأل فيم إناخة الحملين ، وفيم التزول في غير مترل ، وها أنا
هذه أريد أن أقول شيئاً ولكنى لا أكاد أدير لسانى في فى ، ولا أكاد
أستوعب ما كانت أمننا تقول ؛ إنما هى صيحة منكورة مروعة تنبعث في الجو ،
وجسم ثقيل مهالك يسقط على الأرض ، وإذا أخفى قد صرعت وإذا

خالنا هو الذي صرعها لأنه أغمد خنجره في صدرها . ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم في قوة كما يتفجر الماء من ينبوع . ونحن عاكفتان في ذهول وغفلة وبله ، لم نفهم شيئاً ولم نقدر شيئاً ولم نتظر شيئاً ، وإنما أخذنا على غرة أخذاً واختطفنا هنادى من بيننا اختطافاً ، وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها يتفجر ولسانها يضطرب ببعض الحديث في فمها ، ثم يهدأ الجسم المضطرب ، ويسكن اللسان المتحرك . ويخف تفجر الدم ، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت . ونحن فيما نحن فيه من ذهول وغفلة وبله ، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذه الدهول كما أخذنا . . .

وهذا نداءك أيها الطائر العزيز يبلغني من بعيد ، وهذا صوتك يدنو إلى قليلا قليلا ، وهذا غناؤك يتشرب في الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه . وما أنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً ، كأنما هي سهام من نور قد تلاحقت مسرعة في هذه الظلمة فطردت عن نفسي ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله ، وجلت لها الجريمة منكورة بشعة ، والمجرم آثماً بغيضاً ، والضحية صريعة مضرجة بالدماء . . .

إن صوتك لم يوقظني وحدي وإنما أيقظ أمنا فما هي هذه تفتيق وما هي هذه تسأل أخاها : أو فعلتها يا ناصر ؟ ! وما هي هذه تفرق في بكائها السخيف بكاء الأنثى المستسلمة التي لا تملك حولاً ولا طولاً إلا سفح الدموع . ويلك أيها البائسة ! إنك لتستطيعين أن تسفحي د عك إلى آخر الدهر فلن تغسلي قطرة من هذا الدم الذكي . ويلك أيها الأم

الآثمة ! إنك لن تستطيعي أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن .
نعم ! إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظني وأيقظ هذه الأم المجرمة
التي سفكت دم ابنتها بيد أخيها ، وأيقظ هذا المجرم فنبهه إلى أن جريمته
يجب أن تخفى وإلى أن آثار إثمه يجب أن تزول . ولكنه لم يوقظ هنادى
وما كان ينبغي له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقوّ ومهما يلح فلن
يستطيع أن ينفذ من أستار الموت . إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة
وإني لأنشط مثلك للصياح ، وإن صوتينا ليملآن الفضاء العريض
من حولنا ، ولكنهما لا يصرفان هذه المرأة عن بكائها السخيف ، ولكنهما
لا يصرفان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم في هذه الحفرة
التي لم يفارقنا آخر النهار إلا ليهيئها .

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله ، واستنفدت هنادى حظها
من الحياة ، وماتت لأن شاباً آثماً أغواها ولأنها لم تحسن أن تدفع
عن نفسها غوايته .

إن صوتك لينبعث في الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث ، وإن صوتي
لينبعث في الفضاء داعياً وليس من يجيب ، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ
من إخفاء جريمته ومحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإلى ويقول في
صوت مهتدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه النذير : هلم فقد آن أن نرتحل .
فإذا أبطأنا عليه ردد هذه الكلمات في صوت أشد ترويعاً وأكثر امتلاء
بالنذير ، ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعلمان والله أن هنادى ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا
الوباء الذي ألمّ بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلا قليلا ، وانقطع عني صوت خالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت من الأشياء كلها ، وإنى لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

١١

متى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغته ؟ وأي طريق سلكت إليه ؟ وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أثقال هذا المرض الذي أخذت غمراته تنجلي عني لحظات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتراكم ويركب بعضها بعضاً وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولى : كل شيء وكل إنسان ، ولا أحس ولا أرى حين أغرق فيها وحين أخرج منها إلا هذه الصورة المنكرة البشعة التي لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا جرت في جسمي رعدة عنيفة مؤلمة وأخذت نفسي اضطراب لا حد له ؟

أسئلة ألقيتها على نفسي ألف مرة ومرة ، وسألقيها على نفسي ألف مرة ومرة ، فلم أظفر ولن أظفر لها بجواب . وإنما أذكر صوتك أيها الطائر العزيز وهو ينحف في أذني ، ويفنى قليلا قليلا كأنه صوت المودع يبلغ المسافر والقطار يبعد بدعنه شيئاً فشيئاً . وإنما أذكر ذلك الصوت البشع المجرم صوته خالنا الآثم وهو يهدج ويبعد عني شيئاً فشيئاً في ثقل وبغض واشمئزاز . وإنما أرى قطعة من الليل تسعى إلى سعيها هادئاً أول الأمر ولكنها

تسرع شيئاً فشيئاً ، وهذه الظلمات تتكاثف من حولي كأنها الأمواج العظام ، وهذه الأصوات تنقطع وتبعد ، وهأنا هذه يغمرني الموج وأدخل في الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء ، يا له من نوم عميق طويل ! إن الأحلام قد ألحّت عليه ، فهي تروعي فيه ترويعاً متصلاً ليس إلى انقطاعه من سبيل .

أكنت نائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟ أكنت عاقلة ؟ أكنت ذاهلة ؟ لا أدري ؛ إنما أعلم أنني كنت شاعرة شعوراً غامضاً ولكنه قوى ملح كأنني قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامي من الأرض في مكان رحب ، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء ، ولا تقع العين فيه إلا على هذا ينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم ، وعلى ظلال أخرى نجىء كأنما أقبلت ترور هذا الظل ، فهي تلم به حيناً وكأنما تناجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها ، وكأنني أسمع نجوى هذه الظلال ولكني لا أحقق ما أسمع ، وكأنني أفهم نجوى هذه الظلال ولكني لا أتبين ما أفهم . . . وأنا جامدة هاملة لا أحس ولا أرى إلا هذا ينبوع الذي يتفجر في غير انقطاع ، وهذا الظل الذي لا يتحول عنه وهذه الظلال التي تغشاه بين حين وحين . يا له من ينبوع كرهه أود لو أحول عيني عنه ، ولكن حرته تجتلب عيني إليه اجتذاباً ! إنه ينبوع غزير ، ولكنه لا يتفجر منه الماء ، وإنما تتفجر منه الدماء . يا له من ظل حزين كئيب شاحب مسرف في الشحوب أحاول أن أغمض عيني وأن أغلق نفسي فلا أحس له محضراً ، ولكن شحوبه يستهوي نفسي ولكن حزنه يمزق قلبي ولكن انحناءه على هذا ينبوع يملؤني لوعة وروعة

وابتناساً ! يا لها من ظلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن في حركاتها ما يملأ النفس جزعاً وهلعاً ! ما لي لا أثبت عيني في هذا الظل المقيم ، وما لي لا أثبت عيني في هذه الظلال المضطربة التي تذهب وتجيء ؟ أنا أمة أنا أم مستيقظة ؟ أعاقلة أنا أم ذاهلة ؟ أليست أتيين في هذا الظل المقيم ملامح أختي فما لها إذن لا تكلمني . . . وما لها إذن لا تدعوني . . . وما لها إذن لا تناجيني ؟ لقد عرفتها عجة لي واثقة بي مطمئنة إلى ، فما لها لا تظهر لي شيئاً من هذا الحب ، ولا تبدى لي شيئاً من هذه الثقة ، ولا تبين لي عن شيء من هذا الاطمئنان ؟ إنما هي مكبة على هذا الينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة في المرأة . عمّ تبحث في هذا الينبوع ؟ أتراها تلتبس صورتها في هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمني ، أليست ترائي ؟ ما لها لا تجيبي ، أليست تسمعي ؟ ما لها لا ترق لي ولا تعطف علي ؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من في باسما في صيحات قوية عنيفة متلاحقة ؟ ! إني لأسمع هذه الصيحات ولكني لا أرى من أختي أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تخيفها وترزعجها ! فهذا ظلها يستخفي وتستخفي معه الظلال الأخرى ، ويستخفي معها الينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلى ويدنون مني ويستجيون لي ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتيينهم ، ثم أخافهم ، ثم أبغضهم ، ثم أنقي محضرهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقبلوا يرفقون بي ويسألونني عما أجده .

إنهم أهل الدار ، وما أشد بغضي لأهل الدار . إني لأرى بينهم أمي وإني لأكره أن أرى أمي . كلا ! لأكف عن هذا الصياح لعل

أهل الدار أن ينصرفوا عني فيجنبوني محضهم الكريه ؛ إلى لآخذ نفسي بالصمت وأكره نفسي على الهدوء ، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار . وهذا الينبوع الأحمر يتفجر من الأرض قوياً غزيراً ، وهذا ظل أختي ماكنأ لا يريم ، وهذه الظلال تذهب من حوله وتجيء . إن لي بهذه الظلال لعهداً ، لقد رأيتهما ولقد سمعت عنها حديثاً ، لقد حدثني عنها أختي في تلك الليلة التي قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إلى سفره الآثم .

نعم إن لي بهذه الظلال الحمراء ظلال مرتا وأمينة وملزمة تلك التي كانت تراءى لنا فتملاً قلب أختي فرقاً وهدماً وروعاً . . . إن لي بهذه الظلال لعهداً وإني لأعرفها وإني لأفهم الآن إلحاحها بالزيارة على هذا الظل المقيم . لقد أقبلت تحيية وتواسيه وتبثه ما وجدت من ألم وحزن ، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس . إن نجوى الظلال لغريبة ... ليتني استطعت أن أفهمها ، ليتني استطعت أن أستحيل ظلاً فأفهم حديث الظلال ! ما بال أختي لا تتاجيني ، أتراها لا تحس محضري ، أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إلى أو تفهم عني ؟ أتتغير لغة الناس إذا ماتوا ؟ لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقونه إلى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء . . .

إنني لأعرف هذه الظلال . لقد كنت في ضلال إذن حين كنت أزعم لأختي في بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل ، وأنها تكره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه ؛ والظلال ملحمة في المثل أمامي لا يصرفها عني مطلع النهار ولا يصرفها عني مقدم الليل . إن الظلال إذن لا تهاب نوراً ولا تألف ظلمة ، ولعلها لا تعرف نوراً ولا ظلمة وإنما نحن يغشينا

ضوء النهار فلا ترى الظلال التي تحيط بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأق وتسمع كل ما نقول . ولعلها ترثي لنا ، ولعلها تسخر منا ، ولعلها لا تفهم عنا شيئاً كما أننا لا نفهم عنها شيئاً . يا للهول إن تدفق ينبوع ليشثد ، وإن الدم ليتشثر من حوله انتشاراً ، وإن الحمرة لتصبغ كل شيء من حولي ، وإن هذه الظلال لتدنو مني كأنها قد عرفني وكأنها تريد أن تقبلني ! يا للهول ، إن الروح ليلاً قلبي ، وإن الصباح لينفجر من في فيملاً الجو من حولي كما ينفجر الدم من ينبوع فيصنع الأرض بحمرته ، وإن أهل الدار ليقبلون على ، منهم الجزع ، ومنهم المطمئن ، وهم يرفقون بي ويعطفون على . . . !

وهذه أمي ، يا للهول ! ما أسمع هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة وما أشد بغضي لهذا المحضر ! إنها لتدنو مني وإن الدم ليجمد في عروقي لمقدمها . إنها لتضع على رأسي خرقة مبللة وإني لأجد لبرد الماء شيئاً من الراحة ، ولكن لينصرف عني هذا الوجه فإني أكره أن أراه ، لترد عني هذه المرأة فإني لأخشى أن تقتلني . . . وكيف أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا آريت إلى الصمت ولجأت إلى الهدوء ؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة بين ينبوع الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء ، وبين أهل الدار وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصباح . أليس لي سبيل إلى الراحة من هذا العناء ؟ ما أكثر ما طلبت وألححت في طلبها ، وما أكثر ما فرت مني وامتنعت علي ، وما أكثر ما خيل إلى أنني أجري في إثر شيء أتمناه أشد التمني وأحرص عليه أعظم الحرص وأجد في طلبه كل الجهد ، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت منه وثبة فإذا المسافة بيني .

وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبينى بعيد ، وإذا أنا معذبة أشد العذاب
بالاضطراب الملح المضنى بين وجوه أهل الدار التى أكرهها ، وهذه الظلال
التى يؤذيني منظرها ويشير فى نفسى ألماً لا آخر له . . .

ولكننى أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم ،
قد ألح الضعف على فإ أكاد أتحرك . على أنى أجد فى هذا الضعف
نفسه دعة وأمناً فأستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلاماً ، وأجد فى نفسى
دهشاً لزيداً حلوّاً لأنى أفقد شيئاً كنت أخاف أن أجده ، أفقدته افتقاد
السعيد بالنجاة من شر يخشاه . فقد يخيل إلى أن قد بعد العهد بينى
وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار ، وأنى قد قضيت وقتاً غير
قصير لم أر حمرة الينبوع ولم أشهد اضطراب الظلال ولم يرتفع صوتى
بالصباح ولم يسرع إلى أهل الدار . ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى
أجهد ما استطعت فى أن أذود هذه الخواطر عن نفسى مخافة أن يطول
تفكيرى فيها فيكون ذلك استحضاراً لما أتمثله من الهول ، ودعاءً لما أجد
من السعادة فى الإفلات منه ، ورفعاً للستار عن الينبوع الذى منه يفجر الدم
والذى تطيف به الظلال . فأنا أذود هذه الخواطر عن نفسى ، وأستسلم
لهذا الضعف الذى أجده ، وأود لو بقيت كما أنا هاملةً خامدة لا أقدر
على شئ حتى على التفكير ، ولكن هذه هى أى تدنومنى وعلى وجهها الكتيب
شئ من آيات الرضا ، وهى تقول لى فى هذا الصوت الذى يخيل إلى
أنى لم أسمعته منذ زمن بعيد : لقد نمت الليلة كلها يا آمنة ، فأنت بارئة ،
وما أرى إلا أنك ستسرعين نحو الشفاء . ليتها لم تقبل علىّ ، وليتها لم
تدن منى ، وليتها لم تتحدث إلىّ ! فقد اقشعر لقربها بدانى كله ،
واضطربت نفسى كلها ، وأخذت غشاوة غريبة تلقى على عيني ، وأخذت

الأشياء تضطرب من حول اضطراباً وآذاني هذا كله أشد الإيذاء حتى كدت أصبح لولا أني حبست صيحتي في حلقى ولكن لم أستطع أن أمسك يدي وأن أمنعهما عن أن ترتفعا إلى عيني لتردا عنهما منظر هذه الأشياء الراقصة، وظنت الأم البائسة أني أتقيها فولت باكية ، ووجدت في انصرافها عني سروراً وراحة ورضاً .

ولا بد مما ليس منه بد ، فلم يكن سبيل إلى أن تمتنع أحي عن عيادتي والعناية بي ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص من محضرها ، ولم يكن بد من أن تنظر إلىّ وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلى وأسمع منها وأردّ عليها رجع الحديث ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفسي من المراجعة والغيط ما كان يردني أحياناً إلى بعض ما كنت فيه ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفس هذه المرأة البائسة آلاماً إلى آلام وشقاء إلى شقاء فترسل غيراتها حيناً وتهدهاتها حيناً آخر ، وربما أثار في نفسها غضباً تجتهد في حبسه أن يتفجر . وأنا أدنو إلى البرء وأستريد من القوة وأسترد النشاط قليلاً قليلاً ، وآتي بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع الانتقال ، ثم تثوب الحياة إلىّ في قوة كأنما كان بينها وبينى سد ، فلما أزيل أخذت تغمرني من كل وجه ، وإذا أنا أنهض وأسعى ، وإذا أنا أسترّد حظاً من القوة غير قليل وأجد رغبة في كل شيء إلا في الحديث ، وأحي تلور حولي وتتلطف لي وتغلو في العناية بي ، وتود لو تجد إلى نفسي سبيلاً ، وتتفق جهوداً مثيرة للثناء تريد بها أن تصل أسباب الحديث بينها وبينى ، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شيء ، وقد ألتى بين نفسها ونفسي سور صفيق فهما لا تلتقيان . ومع ذلك فإن خاطراً من الخواطر

كان يتردد في نفسى تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدافعه دفاعاً متصلاً
لأنى كنت أجد في اضطراب نفسى به ألاماً فيه الخوف والرعب وفيه البغض
والحققد . فقد كنت أسأل نفسى وأريد أن أسأل أمى أو أن أسأل بعض
من حولى عن خالنا ذلك الشيطان الأثم المريد : أين هو وأين استقرت به
الدار ؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لى فيما كان يتمثل لى من
الصور أثناء العلة ، وما أذكر أنى سمعت له ذكراً أو عرفت من أمره
خبراً منذ أخذ البرء يسعى إلى ويدب في أعضائى ، وما أذكر أن أحداً من
أهل الدار قد أشار إليه أو ألم بالحديث عنه منذ أخذت أخالط أهل
الدار وأشترك معهم في بعض شؤون الحياة . وكنت مع ذلك أريد أن
أعرف من أمره بعض الشيء ، أو أكره أن أعرف من أمره بعض الشيء ،
أحى هو أم ميت ؟ أأفلت بجريمته أم أخذه السلطان ؟ أمقيم هو فى القرية أم
ذهب فى الأرض يلتمس مأمته بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب ؟
ما أكثر ما ترددت فى نفسى هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها
صدرى وما أكثر ما هم لسانى أن ينطق بها ، ولكنى كنت أحبسها فى
ضميرى حبساً خوفاً منها وبغضاً لهذا الرجل الأثم . على أنى لم أستطع
ذات صباح أن أملك من أمرى ما تعودت أن أملكه فسألت أمى وقد
خلوت إليها ، سألتها وأنا أكاد ألقى وجهى عنها : أين هو ؟ وما أسرع
ما فهمت عنى ، وما أسرع ما أجابتنى وهى تشير إلى بالصمت : لقد
ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . قالت ذلك وانهمرت دموعها غزيرة
سخينة ، ولكن بكاءها لم يدع بكائى وحزنها لم يثر حزنى فقد كان بين
نفسها وبينى سور صفيق . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . . .

فلم يأخذه السلطان. إذن ولم يهرب ملتصقاً بأمنه وراء هضبة من هذه الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل الريف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسي إثمه نسياناً ، وكان قد انجلى عنه هذا الذهول الذي غشيه بعد أن سوي الأرض على ضحيته . ولم تتمثل له هذه الصور المروعة التي تتمثل لي ، ولم تنهكه هذه الحمى التي أنهكتني ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع ويشترى ، ويتحدث مع رفاقه إذا تحدثوا ، ويلهو مع رفاقه إذا لخوا ، كأنه لم يأت شيئاً ولم يقترف إثماً ولم يسفك دم ابنة أخته بيده . . .

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود من الواحات فيمن يعود ، يحمل وجهه البغيض ونفسه المجرمة وضميره الآثم ، ويحمل مع هذا كله تجارة قد ترتضيه وقد ترتضى أهل هذه الدار . وسيلقونه مغتبطين بلقائه ، وسيلقاهم سعيداً بالعودة إليهم لا يحس ألماً ولا ندماً ، سيرتفع صباح الفرح لمقدمه في هذه الدار ، سيرتفع صباح الفرح في القرية كلها لمقدم العائدين معه من أهل القرية ، وسيقضى الناس هنا أياماً كلها أعياد يملؤها السرور والخيور . أما أنت أيها الأخت التعسة البائسة فلن يذكرك في هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التي لا تستطيع أن تذكرك إلا سرّاً بينها وبين نفسها ، وإلا هذه الفتاة التي لا تكاد تفكر فيك حتى يتراءى لها الينبوع الأحمر والظلال المطيقة به في ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجنون . . .

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . .

حرام علىّ أن أراه ، وحرام علىّ أن أشهد ما سيثير مقدمه من الفرح والابتهاج . إني لعاجزة عن لقائه ، وإني لخليقة إن لقيته أن أفضح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرّاً . أليست هنادى قد ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء ؟ !

وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى ، وافتقد أهل الدار آمنة فلم يجدوها ، ولو أنهم افتقدوها في القرية كلها لما وجدوها فقد كانت آمنة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصوبةً نحو الشرق...

١٢

وإني لأراها في طريقها نحو الشرق فيمتلئ قلبي رحمة لها وإعجاباً بها وخوفاً عليها . وأبى قلب لا يرحم فتاة غرة لم تكد تتجاوز سن الصبا وقد قذفت بها الأحداث في لجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال ، وهي وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شيء ، وفرغ قلبها إلا من هذا الحزن اللاذع الذي يفعمه إفعاماً ، وعجزت نفسها حتى عن الأمل ، فهي قد فرت من بيت أسرتها فراراً ، لا تريد شيئاً إلا أن تخلص من هذه البيثة التي لم تكن تستطيع فيها مقاماً ، وتفلت من هذا الشيطان المرید الذي كانت توشك أن تلقاه إن أقامت أياماً .

وأبى قلب لا يعجب بهذه الفتاة الغرة التي لم تكد تتجاوز الصبا ، والتي فرت من أهلها فهي تسعى لا تلوى على شيء ، نحيلة هزيلة ، بائسة كئيبة لا تلوى أين ينتهي بها المسير ، ولا تعرف كيف يتاح لها

القوت ، بل لا تفكر في شيء من هذا ، وإنما تمضي أمامها بسرعة في المضي يدفعها عزم لا يعرف الكلال ، وبغض للشر لا هواة فيه ، وثقة بالعدل لا يجد لها .

وأى قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبا تسعى وحدها في الطريق العامة إلى غير غاية ، وقد صحبها الفقر والحاجة والضعف وحداثة السن وشيء من جمال يغري بها كل غوى ، ويطمع فيها كل مفسد ، وما أكثر الغواة والمفسدين في هذه الطريق العامة التي تستقيم وتلتوى بين قرى الريف ! لك الله آيتها الفتاة الناشئة ! إلى أين تذهبين ؟ ألم تفكرى في هذه الكوارث والخطوب التي تضمهرها الحياة للضعفاء والبائسين ، وللضعفات والبائسات خاصة ، وتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هي مصدر خصب للشر والضر ، وينبوع غزير للسيئات والآثام ؟ ألم تفكرى في هذه الأقاويص التي كان تمتلئ بها صباك والتي كانت تسلى نهارك وتروع ليلك ، والتي كانت تمتلئ بأحاديث الأغوال وقد تفرقوا على الطريق يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبل فإذا هم يضمرون له الهول كل الهول ، ويسرون له البغض كل البغض ، وإذا هم لا يكادون يتنسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه وعظمه ، وحتى تضطرم في أجوافهم غلة لا يرونها إلا دمه ، وهو يبلغهم خائفاً وجلاً قد ملأ الجزع قلبه وفرق الملح نفسه ، فإن كان قد حفظ الوضبة ووعى النصيحة واستعد للقاء الغول ابتدره بالسلام فقلم أظفاره واضطره إلى السلم والموادعة ، وإن لم يكن قد حفظ ولا وعى ولا هياً نفسه للقاء الخطوب مر بالغول فالتصمه ألقاماً والهمه التهاماً ، وقطع الوسائل

بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يمضى للقائهم أمامه . . . ؟
 ماذا أعددت يا آمنة لهؤلاء الأغوال فإنهم منبثون في الطريق ؟
 ليسوا سبعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ، بل
 أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئاة قد انتشروا في الطريق ، منهم من
 جلس ينتظر الفريسة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من برز ضاحياً
 ومنهم من استخفى في الحقول واختبأ في المزارع ، منهم من يظهر مظهر
 الغول كريهاً مخيفاً لا يكاد تبلغه العين حتى يمتلئ القلب منه فرقاً وحتى
 تندفع الغريزة إلى اتقائه ومحاولة اجتنابه والخلاص منه ، ومنهم من يظهر
 مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب ،
 وتأنس إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه إلا الجحش إليه إلا غداً
 ولا يظفر عنده الوثاق به إلا بالشر والنكر والبوار . منهم من اتخذ زى
 الرجل ، ومنهم من اتخذ زى المرأة ، وكلهم غول قد هيأته الأحداث
 لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتي نبذتهن الأسرة أو
 اجتثتهن الخطوب من أصولهن فهن مشردات يستقبلن الحياة جاهلات
 بها غافلات عنها ، والحياة تلعب بهن ، تقذفهن من مكان إلى مكان ،
 وتنقلهن من شر إلى شر ، حتى ينتهى بهن القضاء إلى الغول الظاهر أو إلى
 الغول المتنكر ، فإذا هن فريسة لهذا أو لذلك ، يلقين العار والخزي ،
 ويلقين البؤس والضميم ، ويلقين المرض والشقاء ، ويلقين الألم دائماً ،
 وقد يلقين الموت أحياناً . . . ؟ !

لم تفكر آمنة في شيء من هذا حين انطلقت مع الصلباح من بيت
 أسرته كما ينطلق السهم ، ومضت أمامها مندفعة لا تحس جهداً ولا مشقة ،

بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تمضي كما يمضي السهم لأنها لم تكن تفكر إلا في سجن قد أفلتت منه وهي تريد أن تبعد عنه ، وفي حرية قد دفعت إليها وهي تريد أن تنغمس فيها انغماساً .

فهى تمضي وتمضي لا تقف ولا تلتفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التي تتحدث بها الجذبات والأمهات ، قد مضى لغايته ووعى نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه ، والفتاة تسعى مسرعة تستقبل بوجهها المشرق الكئيب وجسمها الضئيل النشط ضوء الشمس ونسيم الصبح واستيقاظ الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك حتى يغمرها الضحى وحتى تغمرها الحياة التي تشطت من حولها ، وإنما هى مضطرة بحكم الغريزة وبحكم هذا الإعياء الذى أخذ يدرك جسمها الضعيف شيئاً فشيئاً إلى أن تمضي مبطنة وتسعى هوناً . ولا يكاد يتصفى النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبره ، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر حتى تكون قد بلغت مأمناً وأفلتت من طلب الطالين . وانتهت إلى قرية من القرى فالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظاً من راحة و شيئاً من طمام وأن تنفق عندهم الليل .

نعم إنى لأرأى فى هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسى الضعيفة البائسة ، وإلا جسمى النحيل الضئيل ، وإلا ثياباً بالية أو كالبالية ، وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت ، ولا أسأل عما أنا مقدمة عليه من الأمر ، ولا عن أنا مقبلة عليهم من الناس ، إنما هو الهيام فى الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذى نسميه حب الحرية

والذى يكلفنا أحياناً من أمرنا شططاً . أكنت خائفة . . . ؟ أكتب
آمنة . . . ؟ لا أدري ! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعاً يتعاقبان على
قلبي كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها .

كنت أطمئن إلى أنى لن أرى أمى ولن أسمع صوتها ، ولن أرى أهل
الدار وأشاركهم فى شىء ، ولن ألقى ذلك الرجل المجرم ذا النفس
الفاجرة والقلب الغليظ ، ولن أخضع لغلظته ولن أحتمل تقربه إلى وترضيه لى ،
فيمتلئ قلبي أمناً وهلواً وتبسم لى الحياة عن أجمل الصور وأخفها
بالأمانى والآمال ، وأجد فى ذلك قوة وشجاعة وصبراً ، فأمضى لا يتركنى
الإعياء ولا ينالنى الكلال . ثم كنت أذكر أختى ولا سيما بعد أن عبرت
البحر وأخذت الطريق تخطط على ، وأخذت أحاول أن أعرف أين انحرف
بنا خالنا المجرم عن الجادة إلى ذلك القضاء العريض الذى اقدرف إنتمه فيه .

كنت أذكر أختى فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها أمامى وإذا أنا
أراها ماثلة ذاهلة كما تعودت أن أراها منذ تركنا المدينة ، وإذا أنا أهم
أن أسعى إليها وأن أمسها بيدي وأن آخذ معها فى الحديث ، وإذا أنا
أنتبه للخطب وأتبع الحقيقة الواقعة ، وإذا يتابع الحزن تنفجر فى قلبي
وإذا الحزن يجرى مع دمي ، وإذا جسمي كله نار مضطربة ولوعة محرقة ،
وإذا دموعي تهرم على خدي ، وإذا أنا مضطربة إلى أن ، أنتبه
ناحية من الطريق لأبكي على مهل على غير مرأى من الناس .

ثم أنهض مستأنفة للسعى ، وإذا أختى تسيرنى ، وإذا الظلال التى
كنت أراها أثناء العلة تطيف بها وتطيف بى ، وإذا ظلال أخرى تملأ القضاء
من حولى لا أدري أنجمت من الأرض أم هبطت من السماء ، ولكنى أراها
تكثر وتختلط وأسمعها من حولى تصخب وتلغظ حتى أخاف على تقسى الجنون .

انا على ذلك كله ماضية تتقاذفي القرى وتتدافنى الضياع ،
 أستضيف هؤلاء حيناً وأسأل هؤلاء حيناً آخر ، أعمل فى الحقول مرة وأعمل
 فى البيوت مرة أخرى ، وهذان اللونان من الشعور يختلفان على قلبي
 ويتعاقبان على نفسى لا يمهلاتنى فى اليقظة ولا يعفیانى فى النوم ، أنا
 مضطربة دائماً بين أهلى اللذين قررت منهم قراراً ، وبين أختى وصاحباتها
 اللاتى يستجبن لى كلما ذكرتهن كأنما يسمعن دعاء فيسرعن إلى الداعى .
 وأنا ماضية أماًى أتقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم ولى من غير شك
 غاية أعرفها وأسعى إليها ، ولكنى لا أكاد أتمثلها ولا أستحضرها ، وإنما
 أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما تدفعنى إليها الغريزة دفعاً .

أنا ماضية نحو الشرق ، لا أنحرف عن غائى إلى يمين أو إلى شمال
 إلا لأقضى ليلة فى هذه القرية أو لأستريح ساعات أو لأستريح يوماً
 فى هذه القرية أو تلك ، ولكنى على جناح سفر دائماً ، متجهة نحو
 الشرق دائماً ، دمنة فى الشعور بالأمن كلما ازدادت من الغاية دنواً ومن
 المدينة قرباً . فالمدينة إذن هى غائى من كل هذا السعى ، فيها أتمس
 الأمن ، وبين أهلها أتمس الحياة الوادعة! وبيت المأمور هو غائى من
 المدينة إليه ألتجأ وإلى من فيه أفرع وبمن فيه أستعين ، فى ظله أريد
 أن أعيش ، وعند أهله أريد أن أودع قلبي ، وعند خديجة من أهله
 خاصة أريد أن أتمس الراحة لهذه النفس المعذبة ، والشفاء لهذا القلب
 المريض . لن آمن حتى أبلغ هذه الدار ، ولن أبلى من علتى حتى أرى
 هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات ، وأستأنف حياتى مع الخدم والسادة
 كمهلها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أمنا بذلك الرحيل المشوم . إذا بلغت
 هذه الدار فستقصر يد خالى دون أن تبلغنى ، وإذا اطمأن بى المقام فى

هذه الدار فلم يجد الروح إلى نفسى سبيلا . ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبى إن سألتونى أين كنت ؟ كيف أجيبهم ؟ . . . وبم أجيبهم ؟ أقص عليهم حديثى كله أم أطويه عنهم طياً ؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبى إن رأونى فأنكرونى ثم أبوا أن يفتحوا لى بابهم وأن يلقونى بما أحب أن يلقونى به من الرضا والعطف والابتسام ؟ ما خطب خديجة وما خطبى إن رأتنى فأعرضت عنى لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم منها مقامى ويلهيا كما كنت ألهيا ، ويشاركها فى الجد واللعب كما كنت أشاركها فى الجد واللعب ؟ أين أذهب إذا نبت بى هذه الدار ، وإلى من ألقا وعلى من أعول إذا تنكر لى أهل هذه الدار ؟

١٣

كلا ! بل هذه الدار كما عرفتها رشيقة أنيقة ، مغرية مطمعة ، لا ترد طارقاً ولا تصد راغباً ، ولا تتجهم لزائر ولا تنبو بضيف . وإنى لأراها من بعيد فأسرع إليها الخطوة كأنما أدفع إليها دفعاً أو كأنما تدعونى ملحة فاستجيب للدعاء . وإنى لأرى دخاناً يصدر عنها وينشر فى الجو فلا أتمثل النار التى يصدر عنها فى المطبخ وإنما أتمثل الطباخ ومن حوله من الخدم يذهبون ويحيثون وأسمع ما يقولون ، وكأنى أشاركهم فيما يأتون من حركة ، وأجاذبهم ما يلفظون به من حديث . وإنى لأدنو من الدار فأرى نافذة مفتوحة فلا أتمثل غرفة خديجة وما فيها من أداة وأثاث ، وإنما أتمثل خديجة نفسها قد جلست إلى بعض ما كانت تلعب به ، أو عكفت

على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأني أشاركها في اللعب أو أشاركها في الاستظهار أو أسمع بعض ما تقرأ . وإنى لأدنو من الدار فأتمثل حياة الدار كلها كأنها قد غمرني وكأني قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر جزءاً من هذا الكل ، وشعاعاً منتشرأً مستفيضاً في هذه الحياة التي تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً .

وهنا إذاً أبلغ باب الحديقة فلا أتردد في ولوجه ، وأمضي أمامي مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالي التي كنت أقضيها مع أمي وأختي في ذلك المنزل الحثير ، وإنى لأمضي كما تعودت بسرعة لا ألوى على شيء ، وإنى لأصعد في السلم لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وإنى لأبلغ غرفة خديجة فأدخلها وأصادف سيدتي وصديقتي عاكفة على كتاب تنظر فيه . ولكننا كنا نلتقي على الضحك والعبث فقالنا الآن لا نضحك ولا نعبث . . . ١٢ أما هي فواخمة ذاهلة قد أخذت على غرة ، وأما أنا فغارقة في البكاء .

ثم هي تسألني : أين كنت . . . ؟ ومن أين أقبلت . . . ؟ وماذا صنعت في هذا الوقت الطويل . . . ؟ وأنا لا أجيب . وأنتى لي أن أجيب بغير هذه الدموع التي تنهمر ، وهذه الزفرات التي تنفجر ، وهذا الشيق الذي يتردد في حلقي متصلاً ببعضه ببعض يزداد شدة وعنفاً حتى يكاد ينتهي بي إلى أزمة من هذه الأزمات التي تفسد أعصاب النساء حين يلح عليهن البكاء . . . ١

وسيدتي وصديقتي قد أقبلت عليّ فتسلطف لي وترفق بي وهنون عليّ بعض ما أجده ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجده . ثم يسمع

الشهيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت ، وإذا هي ليست أقلّ دهشاً ولا وجوماً من ابنتها ، ولكنها تصرف الفتاة عن صرفاً شفقة عليها من هذا المشهد الذى قد يؤذى نفسها الشابة الناشئة ، ثم تدعوني إلى أن أتبعها ، ثم تهدي روعى وتلطّف لى فى الحديث وتسالّى عن أمرى فلا أجيبها بشيء ، أو لا أكاد أجيبها بشيء ، إنما هى جلّ مقطعة غارقة فى الدموع فيها ذكر للرجل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية وروية أهلنا فيها ، وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألم بنا هنا لم نكن ننتظره ولا نقره ففقدنا أخى ، وفيها ضيق بحياة القرية فى ذلك الحزن المتصل ، وحين إلى السادة الذين لم يأتى فى خدمتهم إلا خيراً وبراً ، ثم فيها ذكر العودة المفردة فى الطريق الطويلة الملتوية المخوفة ، ثم انهمار للدموع واتكباب على سيدنى أقبل يديها وقدميها كأنى أشفق أن تردنى ردّاً أو تدفعنى عن الدار دفعاً ؛ ولكنها خدبة على ، رفيقة بى ، تقيمنى وتهضنى وتأمرنى أن أذهب ! حيث أصلح من أمرى وأستأنف عملى فى الدار ، كأنى لم أفارقها أشهراً ، وكأنى لم أفارقها فجأة فى غير استئذان ، وكأنى لم أزد على أن غبت يوماً أو أياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . . ! وأنا أذهب إلى حجرى فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد ، ولم تسكنها خادم يعلى ، ثيابى فيها كما تركتها وأدواتى فيها كما غادرتها لم يتقل شيء منها ولم يحول عن مكانه ، ثم ما هى إلا أن ألقى الخدم ويلقونى بشيء من الدهش والوجوم ، وأخذ فى بعض الحديث ، ثم أنظر فإذا كل شيء قد استقر وإذا أنا واحدة فى الدار من أهل الدار كأن لم يكن بينى وبين الدار فراق . ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة على وجهها بى ، وإبانها على أهلها

أن يتخذوا لها خادماً غيرى ونزول أهلها عند ما كانت تريد .
ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحيها من قبل .
ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشد ما احتملت من
الآلام ، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور ! وكيف
لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان ، وقد
لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت فيها الموت ، وقد عانيت
فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون أو لمثل الجنون ، وقد تعرضت فيها
لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والحمة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك
لا بكادون يشعرون بأنى فارقهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم من هذا
كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأنى قد فارقهم وقتاً طويلاً ،
أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس . إنهم قد نسوا
رحلتى ونسوا عودتى وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون فى ولا يسألون عنى .
ولكنى أنا لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر
أنى قد أخذت من أهل الدار فتاة فدفنتها هناك فى قرية بعيدة
من قرى الريف تظلها هضبة من هذه الهضاب التى تلى الصحراء ، ثم
رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت
منهم آمنة الضاحكة فى أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ، أخذت منهم آمنة
الغرة الساذجة التى تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شىء ، والتى
لا ترى فى الحياة إلا لعباً ، والتى تحدم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها
تلعب ، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف

ألم ولا تتمثله ، ولا تعرف أن للحياة أثقالا وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام لما يملأ النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ؛ أخذت منهم آمنة التي كانت تنشأ وتنمو كما تنشأ هذه الشجيرات في الحديقة وتنمو ، فيها نضرة ولين ، وفيها بهجة وجمال .

أخذت منهم آمنة هذه ففرقت نفسها تفريقاً ، في الطريق حين كنت ذاهبة إلى الغرب تركت بعضها في بيت العمدة الذي ضيفنا حين سمعت لحديث أخى وحين سمعت لحديث أولئك النساء ، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التي كانت تراءى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضى بنا الحملان في الطريق الصامتة وقد تقدم الليل وثقل ، ثم تركت أكثرها في ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذى سال ، ودفن مع الجثة التي دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ، ثم تركت سائرها نهياً لتلك العلة التي ذهبت بما بقى من نفسى وإن أبقت على بقية ضئيلة من جسمى أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلاً قليلاً . أخذت منهم آمنة هذه وفرقتها على هذا النحو بين المدينة والقرية ثم رددت عليهم آمنة أخرى قد تشبه تلك في بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهها فيما بقى من اعتدال القامة ، وقد تشبهها في طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولكنها تخالفها بعد ذلك في كل شيء . رددت عليهم آمنة الحزينة دائماً ، الواجحة في أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة . رددت عليهم آمنة التي رأت الشر بشعاً والإثم عريان والجرم منكراً ، فلأت نفسها من هذا كله وإذا هي سيئة الظن بكل إنسان ،

وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان ، وإذا هي عابسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ، وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الخالكة ثوباً كثيفاً ضافياً فأسبغته عليها إسباغاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وإبتسام .

نعم ، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها ، ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقبضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تنصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الخدمة والدرس إلا عناء وجهداً . ويلح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلّون عن تلك الفتاة التي أخذتها منهم ؟ ويحيى أنا من أهل الدار إن لم يعرفوني ولم يألّفوني كما عرفوا تلك الفتاة وألفوها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون بي ولا ينفرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف .

أولم أتحدث إليهم بذلك المصائب العظيم الذي قد ألم بنا فلاّ قلوبنا حزناً وبؤساً ؟ وإذن فهم يعزّونني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون إلىّ كما ينظرون إلى خادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إلىّ كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤوونها مكرمين لها مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء .

وخديجة . . . ويح خديجة ! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت في مثل ما نشأت فيهم من نعيم ، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تعيش إلا فرحة ومرحة ، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين ، وكيف تبلغ

بغريزتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة العسيرة لبلوغه بالعقل والإرادة .
 إنها لتفهمنى فى غير سؤال ، إنها لترحنى فى غير تكلف ، إنها لترثى
 لى فى غير كبرياء ، إنها لتنصرف بى عما ألفت من فرح ومرح ومن
 دعاية ولعب ، إنها لتتحدث إلى حديث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها
 تشغلنى عن هى بما تقص على من أمرها أثناء غيبتى وبما تقرأ على مما
 قرأت أثناء هذه الغيبة وبما تقرؤنى مما لم أشاركها فى قراءته ، إنها لتفتح
 لى أبواباً ما كانت لتخطر لى على بال . إنها لتنبئنى بنأ عجيب لم أفهمه
 إلا بعد مشقة وجهد وتكرار ! تنبئنى بأنها قد أخذت تتعلم لغة أخرى
 تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئاً ، لغة أخرى ! وكيف يكون ذلك ؟
 إنى أعرف أن هناك لغة الريف التى كنت أتحدثها ، ولغة القاهرة التى
 تتحدثها خديجة ، ولغة ثالثة تقرؤها فى الكتب فلا نعجز عن فهمها
 وإن وجدنا فيه بعض العسر ، فكيف توجد لغة أخرى ، وما عسى أن
 تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ إنها تظهر لى كتباً ما كنت أقدر
 أن أراها ، وإنى لأنظر هذه الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإنى
 لأحاول النظر فى الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخرأ ، ولا أعرف لها
 رأساً ولا ذيلأ ، وإنها لتضحك فى رزق ، وإنها لتحس شيئاً من الكبرياء
 لأنها تعلم ما لا أعلم ، وإنها لتحاول القراءة فى هذه الكتب فتبلغ من ذلك
 ما لا أبلغ ، وإنها لترجم بعض ما تقرأ فأفهم عنها ما تقول بالعربية
 وأدهش وينتهى بى الدهش إلى أقصاه . . .

وهذا أستاذها السورى قد أقبل وإنها لتلقاه فيتحدث إليها وترد عليه

بهذا الذى لا أفهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفتنة . وهذه خديجة تكبر
 فى نفسها وتكبر فى نفسى وتقوم منى مقام المعلم ، وإذا هى تقرؤنى
 هذه الجروف التى لم أكن أقرؤها ، وتعلمنى هذه اللغة التى لم أكن أعلمها ،
 وإذا أنا تلميذة لها فى الصباح وتلميذة معها فى المساء ، وإذا المعلم بارع
 وإذا التلميذة على حظ من ذكاء ، وإذا أنا أجدر فى هذه الحياة الجديدة
 وفيما نقرأ معاً وما نتعلم معاً عزاء أى عزاء ، ونسياناً أى نسيان ؟ وإذا الأستاذ
 تلقى شيئاً فشيئاً بينى وبين هذا الماضى البشع القريب ، وإذا كل شيء
 فى هذا الماضى ينمحي قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا ينمحيان
 ولا يتضاءلان ، وإنما يرتسمان فى نفسى ارتساماً قوياً ويتمثلان أمامى
 تمثلاً متصلًا ملحاً ، وهما شخص أختى صريعاً يتفجر من صدرها الدم
 فى الفضاء العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك
 المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض
 الذى صرعت فيه .

١٤

نعم ! ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء
 العريض الذى صرعت فيه . لقد منحها الحياة ، ولقد قضى عليها بالموت :
 وهل ذاقت البائسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التى
 جنتها فى هذه الدار القائمة من دارنا غير بعيد ! إلى هذه الدار دُفعت

حين هبطت من أقصى الريف ، فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلو من طبيعتها ما رتق لها العيش وقد كان غليظاً ، وجب إليها الدهر وقد كان بغيضاً . فيها عرفت الترف واطمأنت إلى النعيم ! ولم تكد تنشأ وتنمو حتى مدّ لها الحب ذراعين فيهما النعيم والبؤس ، وفيهما الرحمة والعذاب ، فأسرعت إلى ما كان يترأى لها من ذلك جاهلةً له ، مفتونة به ، متهاكةً عليه ، ثم انصرفت كارهةً عما بلت ، وما أدري ماذا كان يحزنها ويمزق فؤادها تمزيقاً حين كانت تقص على أبناءها وتحدثني بأحاديثها : أهو الندم على ما قدمت من ذنب واقترفت من خطيئة ، أم هو الأسف على ما فارقت من لذة وحرمت من نعيم ؟ وما أدري ما الذي كان يملأ قلبها فرقاً ورعباً حين كانت تترأى لها تلك الأشباح الحمراء : أهو الموت الذي كانت ترى نذيره منكراً بشعاً ومسمعه صارخاً ملحاً ، أم هو اليأس الذي كان يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب ، ويلقى بينها وبين الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تُجتاز ؟

نعم ! هذا المهندس الشاب ! لقد ارتسم شخصه في نفسي ارتساماً قوياً ملحاً ليس إلى محوه من سبيل . ولقد كنت أرى أختي فإذا هو ملازم لها كأنه الظل ، بل كأنه ظل من هذه الظلال الحمراء التي كانت تلازمها حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لي في الطريق ! بل لقد تفرقت عن أختي كل هذه الظلال وانمحت انمحاء ، ولم يبق معها إلا هذا الظل الذي لا أكاد أراه حتى تضطرب نفسي اضطراباً عنيفاً ، وحتى يثور في قلبي شعور قوى يختلط غريب شديد التعقيد ، شعور فيه الحوف والرغبة ، وفيه البغض ، وشيء يشبه الحب ، أوحب الاستطلاع على أتل تقدير . .

مَنْ هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟
 أى شيء فيه أغوى هذه الفتاة البائسة ودفعها إلى ما دُفعت إليه ؟ ما عسى
 أن يكون حظى منه إن لقيته ، وأن يكون حظه مني إن لقيني ؟ أو أحبه أم
 أبغضه ؟ أيجنبني أم يبغضني ؟ ما هذه الغواية التي أفسدت على أختي أمرها وأفسدت
 علينا جميعاً أمرنا ، وقصت على أختي بالموت ونقصت علينا جميعاً لذة الحياة ؟
 خواطر كانت تملأ قلبي إذا أصبحت ، وكانت تملؤه إذا أمسيت ،
 وكانت تلح عليه بين ذلك فلا تردّ عنه إلا في شيء من الجهد والعنف
 حين تلح على خديجة في الحديث أو في القراءة أو في مشاركتها فيما كانت
 تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والاستظهار .

خواطر كانت تملأ قلبي في اليقظة ، وكانت تملؤه في النوم ، وكانت
 تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه الفتاة التي سفلت دمها في ذلك الفضاء
 العريض ، فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء وهوى جسمها إلى
 الأرض وهيل عليه التراب ؛ وإلا هذا الفتى الذى ما زال يغدو ويروح
 فرحاً مرحاً ، مغتبطاً مستبشراً ، تبسم له الحياة ويبسم هو للحياة .

ليتني أدرى أيدكر ضحيته تلك أم قد نسيها . وليتني أدرى أيدكرها
 إن ذكرها في شيء من الرفق بها والعطف عليها والحنين إليها ، أم يذكرها
 إن ذكرها في إعراض الزاهد وانصراف المزهدى ! وأين تكون هذه الفتاة
 من نفسه ، وما أكثر الفتيات في نفسه ! لقد كان بالقياس إليها كل
 شيء ، ولم تكن هي بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرف هو غيرها
 كثيرات . لم تذوق لذة الحياة إلا بين ذراعيه ، وما أكثر المواطن التي ذاق
 هو فيها لذات الحياة ! وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات وما بلا من
 صنوف النعم ! وليتني أعرف كيف يلقي ذكرها إن ذكرت له : أيبسم

لصورتها أم يلقاها بالعبوس ! بل ليتنى أعرف كيف يلتقي النبأ البشع المروع
إن ألقى إليه : أبحزنه أن يعلم أنها ذاقت الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها
إليه ، أم يقع هذا النبأ من نفسه موقعاً يسيراً فلا يثير في قلبه حزناً ولا أسفاً
ولا يسلط على نفسه لوعة ولا ندماً !

وكذلك امتلأت نفسي بهذا المهندس الشاب ، حتى لقد كنت
أتمس الفرار منه فلا أظفر به إلا في جهد أى جهد وعناء أى عناء ، وحتى
لقد أنكرت نفسي وأنكرت من كان حولى من الناس والأشياء ، وأنكرنى
من كان حولى حين طال عليهم ما كنت مغرقة فيه من الوجوم والذهول ،
إلا خديجة فإنها لم تنكرنى ولم أنكرها ، وإنما مضت فيما كانت فيه رقيقة
بى عطوفاً على ، تعزىنى وتسلىنى وتفتن فى ذلك ما وسعها الافتنان . وأنا
أعرف لها هذا فأحمدته وأقدره وأرد عليها بعض ما كانت تسدى إلى من
جميل ، فأنصرف إليها حين ألقاها عن هذه الخواطر ، ويفرغ قلبى لما
أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا ألبث أن أعود إلى
ما كنت فيه من وجوم وذهول . وتحس هى منى ذلك فتنصرف عني
بعض الشيء وتركنى لما أنا فيه ، كأنها تقدر أنى أجد فى هذا الوجوم
والذهول لذة وراحة واطمئناناً .

وما تزال هذه الخواطر تلح على وتستأثر بى حتى تستحيل إلى شيء من
الرغبة القوية الملحة فى أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه . وأنا
ألمس أخباره وأتبع أسراه وأتلقط ما يلتقى عنه من حديث . ولم تكن
داره بعيدة من دارنا ، وكأن الظروف قد ائتمرت بى فهيأت لى أن أرى
ذهابه وبجيئه من نافلتى حين يغدو من داره أو يروح إليها ، من هذه
النافذة التى طالما كنت أبادل أختى منها الإشارة وأسارقها منها بعض

الحديث . من هذه النافذة التي لم أذكرها ولم أدنُ منها حين عدت إلى الدار ، وإنما مكثت أياماً وأسايع أجهلها جهلاً وأملها إهمالاً . ثم خطرت لي فجأة وفرض على مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنوها وجلة وأفتحها جزعة حزونة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة « هنادي » ذاهبة جائية ، متغنية بما كانت تغني به من أغاني الريف ثم أغاني المدينة . وإلى لأخذ موقعي من النافذة في الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، وإنما هو قلب ينفطر ، ودموع تنهمر ، وصورة لأختي لا تأتي من الدار ولا تعبر إلى ما بيني وبينها من طريق ، وإنما تأتي شاحبة حزينة من قلبي هذا الآسف الحزين . وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره ، وأدنو منها كلما أتيج لي الدق في النهار حيناً وفي الليل أحياناً . آلفها وتألّفتي ، حتى أصبح وقوفى منها وجلوسى إليها عادة طبيعية من عاداتي كلما دخلت الحجرة وأغلقت بابها من دوقى . والأيام تمضي وتتبعها الليالي ، وإذا أنا أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهمر الدموع ، ولا تتمثل لي صورة أختي شاحبة كئيبة ، وإنما أنا أرى أمامي وأنظر ، فإذا صورة أختي كما كنت أعرفها تذهب وتجيء . صوت أختي يتشرب في الفضاء فيملؤه فرحاً ومرحاً وبهجة وسروراً ، متغنية بهذه الأغنية التي طالما كانت ترددها بصوتها الرخيم الممتلئ العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى :

آه يا نايانا من غرامه يا نايانا
وإن كنت أحبه ما على ملامه

وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً ، إن كان الناس يفهمون منها شيئاً ؛ فهي شائعة ذائعة في المدينة وفيما حولها من القرى تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة ، بل من كل

صبية تحاول الغناء أو تقصد إليه . أما الآن فإلى أتمثل أختي كشيبة حزينة يائسة ، كأنها ظل شاحب لبس له ثبات ولا استقرار ، وإنما هو هائم مضطرب يصدر عنه صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى ، وهو ينتشر في الجو انتشاراً يملأ القلوب لوعة وأسى ، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر النار لا تمس قلباً إلا أحرقتة إحراقاً ، ولا تبلغ نفساً إلا فرقها تفريقاً ؟ !

مالى أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم ، وأعلم منها ما لم أكن أعلم ، وأحس منها ما لم أكن أحس ، وأستكشف فيها من المعاني والمراى والأغراض ما لم يكن يخطر لى من قبل على بال ؟

إن هذه الآهة التى يرسلها الصدى النحيف ممتدةً ضئيلة لا تكاد تثبت ولا تكاد تنتهى ، لتثير فى نفسى عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن لى بها عهد . وإن هذا النداء ليصور لنفسى الأئين كما يصور لنفسى الاستغاثة ، وكما يصور لنفسى اليأس من البر حين يتكرر . وإن هذا الاعتذار ليصور لنفسى الهيام فى غير احتفال بالعاقبة ، ولا ندم على ما كان ، ولا تقدير لما هو كائن . وإنه ليصور لنفسى جرم هذا الحال الأئيم الذى سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها ولم يرى هذه المحبة الهائلة من اللوم ، ولم يُعفها من الإثم ، ولم يصرف عنها العقاب ، لأنه جامد القلب جافى الطبع ، خشن النفس غليظ المزاج ، لم يلدق لذة الحب ولا ألمه ، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم ، وما يكون فوق الإثم ، وما يكون فوق العقاب .

نعم ! وإلى لأسمع هذا الصوت الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليائس الحزين ، فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع جماله حتى أصبح فتنة

لا تنقُ وسحرًا لا يقاوم ، وقد رقّ حديثه حتى أصبح شركاً يصيد القلوب
 وجبالاً تختلس النفوس ، وقد لطفّت حرّكاته حتى لم يبق للامتناع عليها
 سبيل . وإنّى لأنظر فإذا هذه الأغنية تثير أمانى صوراً ثلاثاً : صورة هذا الفتى
 الجميل الرائع يغرى بالإثم ويدفع إليه ، وصورة هذا الشيطان الآثم المرید
 يأخذ بالإثم ويعاقب عليه ، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها الإغراء
 المضنى والعقاب المفضى . ثم أنظر إلى هذه الصور فأسأل نفسي أين أنا منها ؟
 أما خالى فإنّى أبغضه بغضاً لا حدّ له ، ولو ظفرت به لمزقته تمزيقاً .
 وأما أختى فإنّى أرى لها رثاء لا حدّ له ، ولو استطعت لرددت إليها الحياة .
 وأما هذا المهندس الشاب فما أدرى أين يكون مكانى منه : أهو مكان
 المبغضة العدو أم هو مكان المحبة الهاثمة ؟ ! إنه النار المضطربة ، وإنّى القراشة
 التى تهفو إليها وتكلف بها ولكن عن علم بأنّها محرقة مهلكة . . . لأعلمن
 من علم هذا المهندس الشاب أكثر مما علمت ، وليكونن لى منه مكان
 لم أكن أقدره . لأطفئن هذه النار أو لأحترقن بلهبها المضطرم !
 ومنذ ذلك الوقت أخذت أستيقن بأن حياتى موصولة بحياة هذا الشاب ،
 وبأن مقامى فى بيت المأمور موقوت ، وبأن انتقالى منه إلى بيت هذا
 الشاب محتوم إن لم يتمّ اليوم فسيتمّ غداً .

ولزمتُ النافذة أقرب منها الدار أثناء النهار وأوائل الليل ، كأنما وكّلت
 بحراستها أو تتبع ما يجرى فيها . وما هى إلا أن أعرف مواعيد غلوى الفتى
 ورواحه ، وخروجه من داره للسمر إذا أقبل الليل ، ورجوعه للنوم إذا

انقضى من الليل أكثر من ثلثيه ، وإذا أنا قائمة إلى النافذة في هذه المواعيد أراه حين يخرج ، وأراه حين يدخل ، ولا تطمئن نفسي لأمر من الأمور أو عمل من الأعمال إلا إذا رأيته غادياً أول النهار ورائعاً بعد الظهر . فإن حيل بينى وبين ذلك لطارئ من قبله أو من قبلى فهي الحياة المضطربة ، والنفس المفرقة ، والفكر المشرّد ، والقلب الذى لا يهدأ ولا يستقر .

ثم يشتد الأمر بى وتلح الرغبة في هذه المراقبة على ، وإذا أنا أتلمس الأيام التى لا يخرج فيها من داره مع الصبح فأبقى فيها أمام النافذة أترقب ما أرجح أنه لن يكون ، ولكننى أترقبه على كل حال لأنى لا أريد أن يفوتنى مخرجه من الدار ، كأنما اتصلت به حياتى اتصالاً ، ومُدت الأسباب المتينة بين هذه الدار وبين قلبى ونفسى وعينى ، فهى لا تبرح خاطرى مهما تكن الظروف ، وهى تجذبنى إلى النافذة جذباً . وأنا أحس مع ذلك أن هذا ليس إلا أول الشر ، وأن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتى من غير شك لا تجذبنى الدار فيه إلى النافذة لأراها ولأرى هذا الشاب خارجاً منها أو عائداً إليها ، بل تجذبنى الدار إلى نفسها لألج بابها وأعرف أصحابها ، وأتحدث إلى من فيها . ولو أتى أرسلت نفسي على سميتها وخليت بينها وبين ما كانت تريد لما تأخر مقدم هذا اليوم ، ولكنى دافعت نفسي عن هذه الدار دفاعاً شديداً ، وجادلت نفسي في الاتصال بها جدالاً طويلاً ، وظفرت من هذا الجدل ذلك الدفاع بتأخير اليوم المحتوم أسابيع بل أشهراً لست أدري أكانت طويلاً أم قصاراً ، ولكنى أعلم أن أحماها كان ثقيلاً ، وأنى كنت لا أستقبل النهار حتى أستيقن أن الهزيمة ستم فيه ، ولا أستقبل الليل حتى أثق بأنه لن يتقدم حتى يكون التسليم

والإذعان . وأمضى مع ذلك في جهاد نفسي ومدافعتها . حتى إذا استقر كل شيء وغلقت الأبواب ، وانقطعت سبيل إلى الدار ، اضطرت إلى أن آوى إلى مضجعي ، وسجلت لنفسى يوماً من أيام النصر وأمدأ من آماد الفوز ، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد .

ولم أرى نفسى ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضى وأخذت طلائع الليل الشاحبة تغزو الأرض ، ولم أراى خارجة كالمنسلة من دار المأمور ، ساعية كالهاربة التي تحرص على الاستخفاء ، أدور حول الدار مجاورة أسوار الحديقة حتى لا كاد أمسحها مسحاً ، ثم منعطفة بعد قليل ، ثم منطلقة كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق . وألج حديقة المهندس ، ثم أسعى هادئة مضطربة معاً نحو البستان كما نأما أريد أن أسأله عن شيء ، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً ، وإنما وقفت أمامه ذاهلة غافلة بلهاء يملكنى الخوف ويغمرنى الحياء . أريد أن أمضى أمامى حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة « هنادى » فأقضى فيها لحظة أو لحظات ، ولكنى لا أستطيع أن أتقدم ، والبستانى يسألنى من أنا ومن أين أقبلت وماذا أريد ؟ فإذا ألح علىّ فى السؤال وأحسست أن صمتى يطول وأن الرجل سينتهى إلى الضيق بى وبما أعرض عليه من غفلة وبله وذهول ، وليت مدبرة ، وانصرفت نافرة لا ألوى على شيء ، كأننى أخشى أن يتبعنى تابع أو يتعقبنى متعقب . وما أزال أشتدّ فى العدو حتى أبلغ دارنا فأنسل إليها لم يشعر بخروجه منها ولا بعودتى إليها أحد . ثم أمضى متجاهلة متخافلة حتى أبلغ غرفتى وأخذ موقفى من النافذة وقد سجلت على نفسى بعض الهزيمة وإن لم أنته بها إلى الغاية .

على أنى ألفت الطريق بين هاتين الدارين ، وألفت البستاني والاختلاف إليه ، والأخذ معه فى أطراف من الحديث ، وتبادل الإشارات معه من النافذة ومسارفته بعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بينى وبين هذا البستاني حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندى واضحاً معروفاً : أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جده وهزله ما يمكن لمثلئ أن يعرفه حين يتصل بخدمه والمقرين إليه . على أن المعرفة لم تقتصر على البستاني وإنما تجاوزته إلى الخادم ؛ فقد كان هذا المهندس لا يستطيع أن يكتفى ببستانيه ، وإنما هو فى حاجة إلى خادِمٍ تصلح من أمره وتشرف له على نظام الدار . وقد علمت أن أختى لم تكُ تفارقه حتى تعجل البحث عن مخلفها ، واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الوداعة ذات الوجه المشرق والجسم البض والعقل الضيق القصير . اهتدى إلى « سكينه » هذه التى أقامت عنده خليفة لأختى ، والتى كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء ، ولا أجد فى الاستماع إلى أحاديثها لذة ، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما تخوض فيه من لغو . ولكنى مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشتد الصلة بينى وبينها وتزول الكلفة . ولم يكن فى هذا مشقة ولا عسر ، فما أسرع ما اتصل الحديث ! وما أسرع ما انتهينا به إلى الدخائل والأسرار ! وما أسرع ما أحسست فى نفسى عداوة آئمة تشتد كل يوم وتنمو حتى تملأ قلبى وتملك على كل أمرى وتكاد تخرجنى عن طورى وتدفعنى إلى ما لا خير فيه . فقد فهمت — ولينى لم أفهم — أن سكينه لم تخلف هنادى على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب ،

ولأنما خلفتها على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل خلفتها على هواه ومجونه وعلى لثمه وغوايته ، وما أكثر ما لهذا الشاب من الهوى والحجون ، ومن الإثم والغواية ! إنما هو صائد يحتبل الفتيات احتبالاً ويختلبن احتلاباً ، يصرفهن عن الجادة وينحرف بهن عن القصد ، حتى إذا بلغ منهن ما يزهد فيهن خلى بينهن وبين ما ينتظرن من الموت أو من حياة هي شر من الموت .

وإذن فقد خان هنادى ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها مودة ، ولم يكد يفارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها ، والتمس لذته وهواه حيث استطاع ، لم يحفل بما قدّم من سوء ، ولم يحفل بما قدمت إليه من تضحية ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب يُنفق فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحياة وتُسلى به الغربة في مدن الأقاليم .

هو خائن إذن ، وهو يضيف إثم الخيانة إلى إثم الغواية ، وهو خليق أن يلقي جزاء هذين الإثمين كأشنع ما يكون الجزاء ، وهو لاق حظه من هذا الجزاء في يوم من الأيام ، ولاقيه من يد آمنة هذه التي شهدت الموت مرتين : شهدته حين عُدَى على أختها من يد ذلك الحال الأثيم في ذلك القضاء العريض ، وشهدته حين عُدَى على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغاوى وفي هذه الدار الصغيرة الأنيقة التي يقوم عليها البستانى وتضطرب فيها سكينته كما كانت تضطرب فيها هنادى .

أغيرة هذه التي تضطرم في قلبى اضطراماً وتحجب إلى التفكير في الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحجب إلى التفكير في الخناجر التي تمزق الصدور وفي السم الذي يمزق الأحشاء ؟ أغيرة هذه التي يغلى لها الدم في عروقي ويصعد لها اللهب في وجهي وتقدح لها عيناي بشيء كأنه الشرر ،

يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظري وعلى أن يتساءلوا ما خطبي وإلى
أى حال سينتهى بي ما أنا فيه من اللهول ؟

أغيرةٌ هذه التي زادت الحزن عن نفسي وأقامت مكانه غضباً ثائراً
متصلاً لا يهدأ ولا ينقضي ؟ ولن أغار أو على من أغار ؟ أغائرةٌ أنا لهذه
الأخت البائسة التي ذقت الموت في سبيل هذا الفتى دون أن يكون
لتضحيتها أهلاً ؟ أغائرةٌ أنا لهذه الرغبة التي كانت تملأ نفسي وتملك قلبي
وتدفعني دفعاً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل ، والتي
لم تكذب تبلغ غايتها حتى انتهت إلى يأس مهلك لا مخرج منه ولا آخر له ؟
أغائرةٌ أنا لهذا التفكير الطويل فيمن لم يكن أهلاً للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة
وعلى من هذه الغيرة ، أو لإلام تريد أن تنتهي بي هذه الغيرة ؟

لا أدري ! ولكني أعلم أنها قد جعلت مقامى في دار المأمور عسيراً
وعشرتي لخديجة شاقة ! فقد توحشت أو كدت أتوحش ، وأصبحت نافرة
من كل شيء حتى من خديجة التي لم أكن أظن أنني سأعرض عنها يوم
من الأيام . وقد أخذت أحس أن مقامى قد أخذ يثقل ، وأن عشرتي
قد أخذت تشق على من حولي ، وأن خديجة قد أخذت تجزيني جفاء
يجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك الله يا أمة الإلام تدفعك هذه النفس المضطربة التي لا تهدأ ، وهذه
العواطف الثائرة التي لا تستقر ، وهذا القلب الهائم الذي لا يعرف ما يريد ؟ !

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب في جو الدار أحسه
ولا أتبينه ، وأشعر به ولا أحققه ، ألح في وجه المأمور وفي وجه ربة البيت
حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل مبتهج وحزن مكتئب ،
وحين يخلوان للحديث بعد الغداء أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر
عما تعودت أن تطول . وألح في هذا الابتسام الذي يهديه المأمور سخيًّا
كريمًا إلى أهل الدار جميعاً ، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلفظاً
لمن لم يكن يحفل بوجوده ، وفي نظرات طويلة يلقها على أنا حين يلقاني ،
وفيما تظهر ربة البيت من تبسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن
تأخذ معهم بأطراف الحديث .

مألح في هذا كله ، ولكنني أجده فيه غموضاً يثير ميلى إلى الاستطلاع ،
ويكاد يسلبني بعض الشيء عن المهندس الشاب وعما يقع في داره من خيانة
ولائم وعما يثير في نفسي من غضب وغيرة . وأهمُّ أن أسأل خديجة عن هذا
الذي ألح ولا أستبينه ، ولكنني أجدها غافلة لا تلمح شيئاً ولا تحس شيئاً
فأعرض عما هممت به وأكتفي بالملاحظة والانتظار . على أن الانتظار لم
يطل ، فما تنقضى أيام قليلة حتى تظهر حركة في دار المهندس الشاب
تستبج حركة في دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث بسرعة ، وإذا هي تملكني
وتغمرنى وتستأثر بي وتنسني كل شيء وتذكرني بكل شيء في وقت واحد .

وتخرجني من هذا السكون اليأس الذي لزمته إلى نشاط يأس دفعت إليه دفعا .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثاثه ينقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح والتنظيف والترتيب ، ويؤن إليه بأثاث لم يكن فيه ، بعضه مشترى تظهر عليه الجدة ، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم ، كأنما تنهيا الدار لاستقبال بعض الزائرين ، فهي تعد لهم ما يحتاجون إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث . والبستاني مسرف في الحركة مندفع في النشاط ، أراه هنا وأراه هناك ، وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه في النقل والتنظيف والترتيب . وسكينة تعمل معهم لا راضية ولا ساخطة ، لا مبهجة ولا مبسمة ، وإنما هي تذهب وتجيء كأنها أداة لا تعرف الرضا ولا السخط ، ولا تحس الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة في بيت المهندس قد أثارت حركة فاترة متقطعة في بيتنا ! فهذا سرير ينقل ، وهذه وسائل تعار ، وهذه آنية تجمع ثم تحمل ، وهذه ربة البيت تكلفني راضية باسمه أن أذهب إلى بيت المهندس فأعين الخدم على بعض ما يعملون ، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف والترتيب ، وأن أعني بأن نهيا الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب فيها ولا نقص . ثم هذه ربة البيت تستعد في بيتها لتهيئة الطعام الذي سينقل إلى بيت المهندس إذا كان الغد ، ولإعداد الوليمة التي ستقام في دارها إذا كان اليوم الذي يليه .

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وأخذ مع الخدم في العمل والحديث

حتى أعلم - وليتني لم أعلم - ، وأفهم - وليتني لم أفهم - أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان الغد لتقيم مع ابنها أياماً أو أسابيع ، وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات ، وإنما هي زيارة تتم لأمر يراد ، فسخطبُ بنت المأمور للمهندس الشاب ، وستشهد المدينة أفراحاً لم تشهدها منذ عهد بعيد ، وسيسمع أهل المدينة من ألوان الغناء ما لم يتعودوا أن يسمعوا من قبل ؛ فلن يقرأ عليهم المولد هذا المغنى المشهور الذى يقيم فى عاصمة الإقليم والذى يتعصب له أهل العاصمة وما حولها من القرى وما يجاورها من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المغنى الآخر الذى يقيم فى أقصى الإقليم نحو الشمال والذى ينافس صاحبه أشد المنافسة ويتعصب له نصف الإقليم أو ما يقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم المولد الشيخ المذكور هذا الذى يقيم فى المدينة نفسها ويحبه أهل الريف ، ولكن شهرته لاتتجاوز المدينة إلا قليلاً . لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المغنين ، ولكنهم سيسمعون لمغنى يأتى من القاهرة ، قد يكون عبد الحى ، وقد يكون الشيخ يوسف ، وقد يكون غيرها من كبار المغنين . وستأتى العوالم من القاهرة ، وستأتى مغنية مشهورة لتطرب السيدات ، وستقام الزينة وتولم الولايم على أحسن طراز وأجمل شكل ، وسيأتى المنظمون لذلك والمشرفون عليه من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم يفيضون فى ذلك ، ويجرون فى تفصيله مع هذا الخيال الرقيق الساذج الذى يحسب أنه يمضى أمامه إلى أبعد أمد على حين لا يزال فى مكانه لم يتجاوزه أو لم يكد يتجاوزه إلا قليلاً .

كانوا يفيضون فى الحديث عن المغنى والمغنية ، وفى الحديث عن الطهارة

الذين سيهيئون الطعام ، وعن القراشين الذين سينظمون الوليمة ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح ، وعن الموسيقى التى ستأتى من القاهرة فتقتضى فى المدينة يومين أو أياماً تُطرب الناس فى الصباح وتطرب الناس فى المساء ، وعن المدعوين الذين سيشهدون الحفل والذين يدعون إليه من قريب ومن بعيد، وفيهم البشاوات والبكاوات، وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر . كانوا يفيضون فى هذا كله ، ويجدون فى الإفاضة فيه لذة يتعجلون بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وابتهاج . وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها ، وأعى أفلها وأهمل أكثرها ، وأفكر فيما لم يكن بدّ من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أخى ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ يخونها وينتهك ما كان يجب لها عنده من حرمة ، ثم هو الآن ينظم الخيانة تنظيماً ، ويريد أن يأتيا ويقدم عليها ويمضى فيها جبهة باسم الدين والعرف والقانون .

نعم ! ولن تكون سكينه هذه الغافلة البلهاء التى لا أعرفها ولا تعرفنى إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادى على بيت هذا الفتى وقلبه وجونه وإثمة ، ولكن التى تخلف هنادى على هذا كله ستكون خديجة ! خديجة أحب الناس إلىّ وأثرهم عندي وأحسنهم مكاناً من قلبي ، خديجة التى أجد عندها - وعندها وحدها - العزاء عما لقيت من شر وما احتملت من نكر وما ألم بي من مكروه ، خديجة التى أستعين بها على احتمال هذا الخطب الذى أصابنى فى أخى وفى أهلى ، هذه هى التى ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته كلها مكاناً ما ينبغي لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادى وأدت ثمنه

بذلك الدم الزكى الذى أريق فى ذلك الفضاء العريض !
 ولم أكن أسأل نفسى كيف يكون موقع هذا النبأ من نفس خديجة
 حين يلقي إليها : أتذكره وتضيق به ، أم تحبه وتبهج له ؟ ولم أكن أسأل
 نفسى كيف تجد خديجة موقفة منها حين أحاول أن أصد عنها حب هذا
 الرجل الآثم وأن أردّها عنه ، وأن أبذل فى ذلك من القوة والجهد
 ومن الحيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك ؟

لم أكن أسأل نفسى عن شيء من هذا ، ولكنى كنت ناثرة أشدّ
 الثورة وأعنفها ، مؤمنة أشدّ الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ،
 مصممة أشدّ التصميم على ألا يكون مهما تهيأ له الظروف ومهما
 تتظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسى عن كل هذه الخواطر التى كانت تجيش فى
 صدرى وتبعث فى هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم : أكانت
 خواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنت وفية لأختى بالعهد مشفقة
 على حقها أن يضيع ، حريصة على أن أحفظ لها بهذا العاشق الخائن
 رغم أنفه ، مقاومة فى سبيل ذلك قوة الفطرة وقوانين الحياة ، أم كنت
 أتخذ هذه الخواطر حجة وتعلل أخفى بها على نفسى ما لا أحب أن تظهر عليه ،
 وأستر بها دون قلبى ما لا أجد الشجاعة على أن أواجهه به فى صراحة
 وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسى عن شيء من هذا ، بل لم أكن أسأل نفسى
 عن شيء ما ، وإنما كنت أفنى قوتي وجهدى وتفكيرى فى أن أحول
 بين خديجة وبين هذا التدبير الذى يدبر وهذا الكيد الذى يراد . وكثيراً

ما كان يخطر لى أنى أحمى خديجة من شر عظيم ، وأحول بينها وبين خطر منكر ، وأقوم دونها أن يفترسها السبع أو يغتالها الذئب ، وأضن بها على أن تبذل لهذا المجرم الآثم الذى لا يعرف حقاً ولا يرمى حرمة ولا يرجو وقاراً لخلق ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قيامى دون خديجة وحمايتها من هذا الخطر الذى يوشك أن يلم بها فرض . يأخذنى به الوفاء لما بيننا من مودة ، والرعاية لما لها عندى من جميل ، وكثيراً ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف بعضه إلى بعض ويتمثل أمام نفسى مجتمعاً مؤتلفاً قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلابة ، فإذا هو أمامى مرآة نقية صافية ، أنظر فيها فترد إلى صورة نفس كريمة عظيمة قد ارتفعت عن كل نقيصة ، وأصبحت مثالا للبطولة والشهامة والتضحية فى سبيل الأخت التى اغتالها الخطر ، والصدى التى يوشك الخطر أن يغتالها . ولو أنى حولت وجهى عن هذه المرأة بعض الشيء فى ذلك الوقت ، ولو أنى نظرت فى نفسى ولم أنظر أمامها ولا من حولها ، ولو أنى تعمقت قلبى وتبينت قرارة ضميرى ، لرأيت شراً يا له من شر ، ولشهدت هولاً يا له من هول ، ولعرفت أنى لم أكن أفى لأختى ولا لصدى ، وإنما كنت أؤثر نفسى بما أراه خيراً وشرّاً ، وأقف هذه النار المضطربة المتأججة على نفسى وأحميها من أن يحترق بها أحد غيرى !

نعم ! ولكنى لم أكن أنظر فى نفسى ولا أحاول النظر فيها ، وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذى يدبر ، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذى كان لأختى منذ حين والذى يجب أن يكون لى بعد حين ، كأنما ورثته عنها بعد الموت !

والغريب أن هذه الخواطر المضطربة كلها لم تفسد من أمرى شيئاً ،
ولم تغير من شكلى ولا من نظام حياتى الذى ألفه أهل الدار قليلاً
ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسى ، وأذهب وأجىء ، وأعمل وأكسل ،
وأنشط وأفتر ، كما رأتى أهل الدار من قبل ، بل خيراً مما تعودوا أن
يرونى فى الأيام الأخيرة . فقد ذهب عنى الذهول ، وفارقنى الوجوم ،
واستقرت عينائى وهدأتا واستقامتا ، فليستا تضطربان ولا تقدحان الشرر
أو ما يشبه الشرر ، ولا تنظران هذه النظرات التى كانت تخيف منى
وتثير فى النفوس من حولى شكاً وريباً وإشفاقاً . عدت إلى هدوء غير
مألوف ، وانطلق لسانى بالحديث ، بل تردد الابتسام على شفئى ، وأخذ
الإشراق يترقق فى وجهى من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد فى
أن هذا الفرح الطارئ قد شفانى مما كنت أجده ، وردّ إلى ما كان قد
فارقنى من اعتدال المزاج .

ثم نصبح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ
الدار جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولى فى مظاهر ما يجلبون من فرح
وبهجة ، وأنفرد وحدى بلوعة لا تنقضى وحزن لا تخمد ناره .

يا لقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا خذل لها . يا لمكر
النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لقدرة
النساء على الكيد وبراعتهم فى التلويح ونهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن
لأفدح الخطوب !

لقد أكبرت نفسى ، بل أكبرت المرأة فى نفسى حين رأيتنى أضطرب
فى هذا التمثيل وكأنى أضطرب فى الحياة الواقعة لا بأخذنى أحد

ولا آخذ نفسي بتصنع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأنافق وأصطنع الرياء وأخفي ما أخفي وأظهر ما أظهر ، في سهولة ويسر ، كما أنفَسَ وكما أفتح عيني وأغمضها ، وكما آتي ما تدفعني الغريزة إلى أن آتي به من الحركات ! ومع ذلك فبعض ما عرض لي من الخطب وبعض ما ألم بي من الهم كان خليقاً أن يحول بيني وبين الحياة فضلاً عن الحياة المأثمة المطمئنة ، فضلاً عن هذه الحياة المضاعفة التي يملؤها الكذب ويجري فيها الرياء كما يجري الماء في الغصن الرطب .

١٧

وانتهى النبأ إلى خديجة ، كما انتهى هذه الأنباء إلى الفتيات من بنات الطبقات الوسطى ، ظاهراً خفياً ، وواضحاً غامضاً ، يلقي إليها ويسر عنها ، تُنبأ به وترد عنه ، فتبتهج له نفسها وتستحي مع ذلك من أن تتحدث فيه ، ويمتلئ له قلبها غبطة وسروراً ، ويفرض عليها الأدب مع ذلك أن تتكلف الكتابة والحزن كلما ذكر لها ، وأن تعرض بوجهها إعراضاً كلما هم أحد أن يشير إليه من قريب أو بعيد ، وأن تفر منه فراراً إذا كان الحديث فيه إليها صريحاً جليلاً . على أن صديقتي وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار ، قد أثرتني بما كانت تؤثرني به في كل شيء . من هذه الصراحة الساذجة الحلوة ! فلم تخف عليّ ما كان يملأ قلبها من فرح وغبطة ، وما كان يغشى نفسها من قلق وإشفاق . وما أكثر ما تحدثت إليّ وما أكثر ما تحدثت

إليها في أمر الخطبة والزواج ، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التي لا تحصى ولا تستقصى ! وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وما نعرف وما لا نعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته وثروته ! وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومضيئنا مع الخيال ! وما أكثر ما فصلنا الأمور تفصيلاً ، وأطلنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر ، فتحدثنا عن الثياب التي ستشترى ، وعن الحلوى وعن الأثاث ، وأقمنا القصور وأنقنا إقامتها إتقاناً !

وأنا في هذا كله أجازى صديقتي مجارة بسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول حتى لم تشك لحظة في أنني أشاركها في أمر الخطبة والزواج كما كنت أشاركها قديماً في أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس والقراءة والاستظهار . بل نحن نتحدث فيما سيكون غداً أو بعد غد حين يتم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة في دارها وتصبح ربة بيت . ونتحدث في الدرس الذي لا بد من أن نمضي فيه ، وفي القراءة التي لا نستطيع أن ننصرف عنها ؛ ونرتب أمرنا على أنني سأنقل مع خديجة إلى حيث تكون ، وسأشاركها في حياتها مهما تكن الظروف . وما الذي يمنع من ذلك وما دخلت هذه الدار إلا لها ، وما عملت في هذه الدار إلا معها ، وما استطاعت في يوم من الأيام أن تقبل شركة أو ترضى من أهلها أن يكلفوني بما لا يتصل بها من الأمر ، كنت لها طفلة وكنت لها فتاة ، ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربّة بيت .

نعم ! ما أكثر ما تحدثنا في هذا كله وأنفقنا فيه الساعات أثناء النهار حين كان من حولنا يضطربون فيما يضطرب فيه أهل الدار حين

تنبها لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل شيء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذى تمتاز به ليالى الريف ! ولكن نفسى فى هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة ، وإنما كانت نائرة جامحة . وكنت كثيراً ما أكف عن الحديث لأفكر فى هذا الشخص الغريب الذى يحتوى نفسين متناقضتين أشد التناقض : نفساً تبتهج وأخرى تبتئس ، نفساً تعد وأخرى تواعد ، نفساً تمضى فى الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضى فى تدبير ما يحزن وينفع . وتنقضى الأيام الأولى ، ويكون اللقاء ويكون التزاور ، ويكون الامتحان لحديجة بالنظر والحديث ، ويدنو كل شيء من غايته ، ويستحيل الجلو إلى الوضوح والحلاء ، وتنفس أهل الدارين فى جو كله سرور وغبطة وأمل ورجاء فى غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذى تتكشف الأمور فيه عن نفسها ، وتصبح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكنى أجدنى فى ساعة من ساعات النهار وقد آذنت الشمس أن تنحدر إلى مغربها ، وانتشر فى الجلو هذا الحزن الضئيل اليسير الذى ينتشر فيه مع الأصيل فيهدئ من نشاط النفوس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويلقى على الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجرى فى الأصوات الفرحة نغمة لاتخلو من كآبة ، أجدنى فى ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت ، حتى إذا بلغت غرفتها دخلت لا أستاذن ، ثم أغلقت الباب من دونى لا أستاذن ، ثم وقفت واجهة بين يدى سيدتى لا أقول شيئاً ، وإنما تنحدر

الدموع غزيرة على خدى ، وسيدتى تنظر إلىّ فى غير إنكار وفى غير لوم ، كأنها قد فهمت عنى ما أردت أن أقول ، وكأنها قد استجابت لدعائى ، فهى ترفق بى وتؤكد لى أنى لن أفارق خديجة ولن يحول بينى وبينها حائل ، وأنى سأنتقل معها حين تنتقل ، وسأسافر معها حين تسافر ، وسأقيم معها حين تقيم ، وأنى أحسن حظاً منها هى ! فهى مضطرة إلى أن تفارق ابنها ، أما أنا فلن أفارق سيدتى وصديقى . . .

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ، ولكنه لا يبلغ منى ولا يؤثر فى نفسى ، فما لهذا الحديث أقبلت . وما حاجتى إلى أن أسمعه من ربة البيت وقد سمعته ألف مرة ومرة من خديجة ! ومنى استطاعت ربة البيت أن تفرق بينى وبين ابنها فى جد أو لعب ! كلا ! لم أقبل لأسمع هذا الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً ، وإنما أقبلت لأقول شيئاً ، وقد قلته فى صوت هادئ تبلى هذه الدموع المنحدرة المنهمرة . وكنت أقدر أنه سيفع من هذه المرأة موقع الصاعقة ، وأنى قد دخلت هذه الغرفة فى هدوء ولن أخرج منها إلا فى عنف واضطراب . ولكنى قد أتممت ما أردت أن أقول ، وانتظرت ثم نظرت ، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب والدهش . ثم تهمت أن أنصرف خجلة مستخذية ، ولكنها وقفتنى بالإشارة وتركتنى لحظة لا تقول لى شيئاً ولا تلقى إلى لحظة ، ثم قالت فى صوت عادى مترن : وهل أنبات خديجة من هذا بشيء ؟

قلت وقد أغرقت فى البكاء : كلا يا سيدتى ! وما ينبغى لنفس خديجة الطاهرة البريئة أن يلنى إليها حديث هذا الإثم . ولولا أنى

أوثر خديجة وأوثر الأسرة كلها لما أنبأتك بشيء ، ولما أفضيت إليك بسر هذه الأسرة البائسة التي تعيش في بؤسها المظلم في أقصى الريف .
 قالت وقد نهضت إلى متناقلة : لا بأس عليك ! فلن يذاع سر أسرتك . ثم ضمتني إليها وقبلتني وهي تقول : لقد أنقذت ابنتي من شر عظيم .

١٨

قلت : نعم يا سيدتي ، قد أنقذت خديجة من شر عظيم ، ولكنك تترين معي أن لا مقام لي في هذه الدار منذ الآن ! فكل شيء يأمرني بالتحول عنها . قالت وقد أحسست في صوتها أنها مشغولة البال منصرفة النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث : وما ذاك ؟ قلت مقتصدة متعجلة مضمرة أنني إنما أتحدث لأعذر عما سأتى من الأمر : لم أعود يا سيدتي أن أخفي على خديجة شيئاً أو أكرم من دونها سرّاً ، وما ينبغي بل ما أستطيع أن أبقي معها مستأثرة بعلم ما أعلم طاوية عنها مسعاى عندك وستعلم خديجة من غير شك أن هذا الأمر الذي بدئ فيه قد أهمل وعدل عنه ، وسيكون له في نفسها أثر حاد ، ما أشك في ذلك ، ولست آمن نفسي حين أحاول ما يجب عليّ من تسليتها وتعزيّتها أن أبوح لها ببعض الحديث . والخير كل الخير في أن أتعجل الرحيل . وما دام الله قد قضى عليّ الشقاء فلا بد من الإذعان لما قضى الله . قالت : وأين تريد أن تذهب ؟ قلت : لا أدري ! وإنما يجب أن أذهب أولاً ، فأما إلى أين

فشئء سأسئئئئء بعء ذلك . . !

ولم یرئفع ضحئ الغء حئ کئ بعئء عن ءار المأمور قربء منها مع ذلك ، ألظ من کئ ما یرکون یرن هائئن الأسرئئ اللئئ لم ئئصل بیئها الأسباب إلا لئئئطع ، ولم ئئشأ بیئها الموءة إلا لئئئئیل إلى عءاء أو شئء یرشبه العءاء . ولم أءء فی ذلك مشقة ولم أئکلف فیه عئاء ، وإنما ئحولئ من ءار إلى ءار ، وقضئئ یوماً أو بعض یوم عئء هءه المرأة الئی ئءءئئ عنها فی أول هءه القصءة ، عئء زئوبة ئلك الئی عرفها فی بیئ العمءة وقصصئ من حءبئها ما قصصئ .

أقبلئ علیها نحر الظهر ، فألفئئها قائمة ئکیل بعض ما ئکیل من الحب ، وأمامها نسوة یرئرئئ منها : هءه ئشرئ القمح ، وهءه ئشرئ اللرة ، وهءه ئشرئ القول ، هءه ئشرئ نقءاً ، وهءه ئشرئ نسیئة ، وزئوبة ئحئکم فی هءه وئلك صائئة مسرقة فی الحركة ، لا یرئقر لسانها فی فئها ، ولا یرئقر وجهها أولاً یرئقر ما یرئئلف علیه من الصور والأشكال ، فئی عابسة حئناً ، ویراسمة حئناً ، وهئ ففعل بعینئها وشفتئها وحاجبئها الأفاعئل وئءل بها علی ما قء یعجز الکلام عن أن یدل علیه ، وهئ ئسب هءه جاءة وئسب هءه مازئة ، وهئ ئلمح حئناً وئصرح حئناً آئر ، وهئ ئمضئ فی ذلك والنسوة یرسمئ لها راضئاء عنها معجبائ بها ، مشارکاء لها فی بعض ما ئقول وفئ بعض ما ئأئ من الحركات ، وأفراد من شباب المئئئة قء اجئمعوا غیر بعئ یرئظرون ویرسمعون ، ثم یرئاءلون قئما بیئهم أءاءئئ فئها الءعابة والرضا ، وفئها اللءة والإعجاب .

فلما رأته زئوبة لم تنكرني ، ولكنها لم تغل في الترحيب بي ، وإنما نظرت إلى من الرأس إلى القدم ، ثم قالت في صوتهما النحيف : ها أنت ذى تقبلين ! لقد بعد العهد بك منذ التقينا في بيت العمدة ، ولكني كنت أنتظرك ، وما شككت في أنك ستأتين إلى هذا البيت وستقومين مني هذا المقام . قلت : فهل أنباك الودع بهذا ؟ قالت : وما يدريك ! لعل الودع قد أنبأني من أمرك بما تعلمين وبما لا تعلمين . اصعدى إلى هذه الغرفة من فوقنا فتخضعي من حقيبتك واستريحى ، فسأفرغ لك بعد حين ، ولا تتعجلي الطعام إن كنت جائعة فإن وقت الغداء لم يحن بعد ، وإن كنت أقدر من أمرك أنك لا تحفلين بالوقت فيما يتصل بالطعام ، فما أرى إلا أنك تأكلين في كل وقت . هذا شأنكن أيها الفتيات تشغلن ببطونكن أكثر مما تشغلن بأى شيء آخر . ومن يدري ! لعلكن تشغلن . . .

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد في السلم إلى الغرفة التى دلتنى عليها ، ولكنها تبعتنى مع ذلك بالسخرية والدعابة ، وأخذت تقول : اهربي ، اهربي ، وجدى فى الهرب ، إن أذنك النقيتين البريثتين لا تستطيعان أن تسمعاً لما ألقى من حديث . إنك تخافين من احمرار الوجه واضطرابه . لن نخدعننى وإن استطعت أن تخدعنى غيرى ؛ فإنك لتحجين هذا الحديث وتخوضين فيه وفى شر منه مع أترابك من الفتيات ، ولكنكن تتصنعن الحشمة وتكلفن الحياء على أنها لم تمض فى هذا اللغو إذ لم تأنس استماعى لها وانصرافى إليها ففضت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن دعابة بالوجه واللسان .

وفرغت لى بعد ساعة ، فأقبلت على هادثة باسمه ، تسألنى عن أمى وأختى وأجيبها عن أسئلتها بما أريد ، فتصدق ما تصدق وتكذب ما تكذب ثم قالت : وأنت الآن تريدن العمل ، فأين تحين أن تعملى ؟ وكيف تريدن أن تعيشى ؟ إن لك من جسمك هذا الجميل ، ووجهك هذا الوضىء ، ومنظرك هذا الذى يسحر الشبان ويغلب عقول الرجال ، ما يكفل لك حياة فيها ثروة وغنى ، وفيها نعم وترف ، وفيها لذة ومتاع ، وفيها تسلط وسيطرة واستخفاف وعبث بعقول الشباب والشيب . قلت مغضبة : دعينى من هذا الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت أستعينك على شىء ، وإنما أملت بك محبة لك قبل أن أترك هذه المدينة فإنى عنها مرتحلة . قالت وقد أدارت عينها وأسبغت على وجهها شكلاً مضحكاً تملؤه السخرية ويشيع فيه التكليل والاستهزاء ، وأرسلت من فيها شهيقاً منكراً أتبعته بشخير منكر ما أشك فى أن الشباب المجتمعين غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له ، وانتهى إلينا ضحكهم حيث كنا ، فزادها مرحاً ونشاطاً ، وملأنى خزيًا واستحياء ، قالت : لا تُراعى لا تراعى ، فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أكرهك على ما لا تحبين ، ولكنى أعرض عليك ما عندى . فأنت تكرهين هذه البضاعة أو تظهرين كرهها الآن ! فعندى غير هذه البضاعة ، ولكن تنى يا ابنتى أنك راجعة إلى قطالبة منى ما ترفضين الآن . لست الأولى ولن تكونى الأخيرة . . . تريدن عملاً كله جد كهذا الذى كنت فيه عند المأمور ، فلم تركت بيت المأمور ؟ ولكن هذا من أسرارك ، وإن لم يكن للفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالى سر ؛ فقد أحب أن

أعلم من أمرك جليلة . وخفيه لأوصي بك عن علم . أخرجت سارقة ؟
 أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب ؟ أم خرجت لكثرة الصباح ؟
 أم أغضبت سيدك ؟ أم أغضبت سيدتك ؟ أم أغضبت بنت المأمور ؟
 أم أغضبهم جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟
 وهل تعلمين . أن في المدينة مأمورين أو بيتين كبيت المأمور ؟ وأنت
 تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح واللبالي الملاح ،
 وتترلين عما كان يحق لك أن تطمعي فيه من العطايا والهبات ! فليس من
 شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة . وليس من شك في أن كثيراً
 من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف
 تركت هذا كله ؟ أتركته راضية ؟ ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ؟ ولماذا ؟
 تكلمي ! إني لا أحب الغموض ، ولا أطمئن إلى الأسرار ، ولا خير في
 التمتع والإباء والكتمان ، فما تخفيه اليوم سأظهر عليه . غداً وسأظهر عليه
 قبل أن تغيب الشمس ، ولست بزنوبة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك
 لم تبلغ العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار
 الأسر التي تقيم فيها أو تفقد عليها أو ترحل عنها ما أعلم . تحدثي ! كيف
 خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المنهر من الحديث ، وأمام هذه الأسئلة الملحة
 وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يسعني
 إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيقتي فأحملها وأمضي نحو السلم ، ولكنني لم
 أكد أبلغه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيقتي قد خطفت مني
 خطفاً ، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتني بلزاعها المنكرتين ، وأخذت

تلحّ علىّ بالضم والتقييل تهدئني وترضاني ، وأنا لذلك كارهة أشدّ الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشدّ السخط ، ولو استجبت لنفسي لصحت مستنجدة طالبة الغوث ؛ فقد أخذت أمقت نفسي وألومها ، وألعن هذه اللحظة التي خطر لي فيها أن آوى إلى دار هذه المرأة ربّما أهينّ أمرى بعض الشيء وأدبر لي عملاً أمضي فيه .

ولكن زنوبة ملحّة علىّ بالرفق والملاطفة ، وقد خفت صوتها وعذب حديثها ، وأخذت تتحدث إلىّ بأمور ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة ، كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوعني أو يروعني أو يقلقني عن هذه الدار التي اقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامى أياماً أو أسابيع . ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل في حديث هادئ فيه الجدل وفيه الهزل ، وإذا أنا آنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحس من عطفها ، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت في هذه الساعات يسيرة قد زال منها التكلف ، وإذا نحن قد تغدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت تتحدث إلى صاحبها في شيء من السذاجة والثقة غريب ، وإذا نحن نستحضر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة منا تستكشف في صاحبها من وراء هذه الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صور البؤس وتمثالا مستتراً من تماثيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترى لصاحبها أو تتخذ الرثاء مظهرأ من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن نشترك في البكاء وتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين في الضحك ونستبق إليه . ولم يكد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيتنا قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذي يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن

احتفظ بشيء من الاحتياط . . فلم أظهر زنوبة على سرى ، ولكنى أنبأتها بأن أختى قد قضت فى الغرب ؛ وزعمت لها أتى إنما خرجت من بيت المأمور فى إثر مغاضبة كانت بينى وبين الخدم ، ثم لم أظفر بما كنت أرانى أهلاً له من الإنصاف . وقد سمعت منى ما أقول وهى إلى التكذيب أقرب منها إلى التصديق ، ولكنها تجنببت الجدال والإلحاح فيه ، وأظهرت الرثاء لى والعطف على ، ووعدتنى بأنها ستجد لى عملاً شريفاً مريحاً إذا كان الغد ، وألحت على فى أن أقضى الليل معها وقد فعلت ، وقد أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل فى مثل ما أنفقنا فيه النهار . فلما أصبحنا غابت عنى ساعة أو نحو ساعة ، ثم عادت إلى متلهة مشرقة الوجه وهى تقول : لقد وجدت عملاً ما أشك فى أنه سيرضيك . ستعملين حيث كانت تعمل أمك قبل أن ترحلن عن المدينة فى بيت فلان ، أتذكرين اسمه ؟ أتعرفينه ؟ إنه رجل من أصحاب الثراء واليسر ، وقد لا تجددين فى داره مثل ما كنت تجددين فى دار المأمور من الترف ، ولكنك ستجددين عنده سعة ويسراً ، ودمائة فى الخلق ، وتبسطاً فى المعاملة ؛ فزوجه كريمة النفس ، وبناته صالحات لم يفسدهن الذهاب إلى المدارس ولا استقبال المعلمين . فهذا الرجل أمير يضمن بيناته على هذا الفساد ، ويرسل أبنائه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصبروا فيما بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضى والمهندس . وإذا أقبل الصيف وعاد هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت فرحاً ومرحاً ، وأصبحت أيام الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم من الرغد والسعة ولين العيش . وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ

أعوام وأعوام ، وقد ريت أبناءها وبناتها ، وقد تبنت منهم واحداً بعينه هو الآن شاب نجيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف لى هذا الحق ويحببى ويكرمى ويؤثرنى بالخير والمعروف ، قلت : وكيف تبنيه ؟

قالت وهى تضحك : أتجهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان وليداً فأدخلته من بين ثوبى وبنى ، أدخلته من جيبى وأخرجته من تحت ذيلى ، فأصبحت كأمى والدته ، وأصبح لى عليه حق الأمهات وله على حق الأبناء . ستمعلمين فى هذا البيت وسترضين ، وسأراك كل يوم إذا أصبحت وسأراك إذا أمسيت ؛ فليس بين هذا البيت وبيننا إلا خطوات ، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عنك إلى ربة البيت فعرفتكم وعرفت أمك وأختك وقبلتك راضية مسرورة ، فهلم بنا فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات . ولست أخفى عليك أنها كرهت بعض الشيء استخدامك بعد أن خرجت من بيت المأمور لما بين الأسرتين من مودة ، ولكنها لم تطب نفساً عن تركك عرضة لما يتعرض له الفتيات من الشريعة أن عرفت أمك وحمدت عشرتها . فهلم بنا فقد تتاح لنا أوقات طوال يكثر فيها بيننا الحديث .

وتهضت معها وليس فى نفسى ريب فى أنها قد نصحت لى وأخلصت فى النصيح والود ، وفى نفسى بعض الأمل فى أنها ستعينى يوماً ما على تحقيق ما أريد .

وأقبلت معها على بيت من بيوت الريف هذه التى يظهر فيها الثراء ؛
 ويحس أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من ترف
 الحضارة إلا بأيسره وأهونه ، محتفظين بما ألفوا من هذه الحياة الريفية
 التى لا دقة فيها ولا رقة ولا افتتان فى إرضاء الذوق ، والتى تكره النظام
 وتنفرد منه ، وترى فى الترتيب والتنسيق تكلفاً وجهداً لا خير فيهما ولا
 حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التى لا يكاد يدخلها الداخل حتى
 يحس أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال ؛ فالمتاع كثير ولكنه
 مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يهيا ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر
 فيها كما استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملغى أو كالمالغى بين حجرات الاستقبال للسيدات وحجرات
 الاستقبال للسادات ، بل بين حجرات الاستقبال وحجرات الطعام ،
 إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسى ، ويأكل أهل
 الدار حيث يتفق لهم أن يأكلوا ، إلا أن يطرقهم طارق أو يلهم بهم ضيف
 فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ، ثم يكون نوم الطارق أو الضيف
 حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

فى البيت مقاعد وكراسى ، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على
 هذه الحصر والأبسطه قد ألفت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق
 أو أقبل الضيف عرفت الكراسى والمقاعد أن لها فى البيت منفعة وعملاً .

والفرق ملغى أو كالملقى بين من فى الدار من الناس وما فى الدار من الحيوان على اختلافه ؛ فاللدجاج مطلق يمضى حيث يشاء ويستقر هنا ثم يستقر هناك حاملاً معه أقداره وآثاره ، ولا يحصى منه إلا حجرة أو حجرتان ولا تحميان إلا فى مشقة وتكلف للجهد . وقد لا يكره أهل الدار إذا اشتد القيظ أن ينفقوا مساءهم تحت السماء قريباً من البقرة أو الخاموسة أو ما إليهما ، يطلبون النسيم حيث يجدونه ، لا يتكلفون فى ذلك ولا يتصنعون ، ولا يجدون فى مخالطة الحيوان حرجاً ولا أذى . هى الحياة السهلة اليسيرة الغنية همت أن تتحضر وأن تترف ، فأخذت من الحضارة والترف بحظ ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكثفت بما أخذت ، ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

ولم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادماتها يعملن وتعمل معهن ، يتحدثن وتشاركهن فى الحديث ، حتى أحسست أنى سأجد فى هذه الدار راحة وتعباً ، وسألقى فيها نعيماً وبؤساً . وقد صدق حسى ، فنعمت فى هذه الدار وشقيتُ : نعمت بهذه السداجة التى ردتنى إلى شىء يشبه حياتى فى أقصى الريف ، وخلطتنى بأهل الدار كأنى واحدة منهم ، وألغت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت تلغيه . ولكن أى حياة يموت فيها العقل أو يأخذ شىء كالموت ! لم آسف على ما فقدت من الترف ، ولعلى لم آسف على ما فقدت من صحبة خديجة ؛ فقد استيأست من صحبتها واتخذتها — سواء أردت أم لم أرد — لنفسى خصماً ، حاربتها وإن زعمت أنى كنت أدافع عنها ، وظلمتها وإن زعمت أنى أنقذتها ، وانتصرت عليها وإن زعمت أنى

لم آسف لما فاتني من صحبتها فلم يكن من ذلك بدء ! ولكن أى آسف وأى حزن وأى لوعة وحسرة ، وأى ندم يذيب القلب ويملا النفس كتابة ويأساً هذا الذى كنت أجده إذا أصبحت وأمست وقضيت الليل والنهار بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه للقلب !!

أين القراءة مع خديجة ، وأين القراءة منفردة ؟ أين هذه الكتب العربية وهذه الكتب الفرنسية التى كنت أنفق معها أكثر النهار وشطراً من الليل قارئة أو متحدثة عما قرأت أو متمنية لاستئناف القراءة ؟ لقد تركت هذا كله فى بيت المأمور ، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله أحد ، إلا رب البيت ؛ فإنه يقرأ إذا أصبح ، ويقرأ إذا أمسى ، وأنا أسمع في الصباح والمساء ، وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ . وما يعنى بما يقرأ ! إنما هى أوراده وأدعيته ، ودلائل الخيرات . وأين أنا من هذا ، وأين هذا منى !!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً ، وما كان لى أن أستصحب كتاباً ، وإنما كانت كلها كتب لخديجة . ولقد سألت نفسى ألف مرة ومرة : أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب ؟ فليس فى هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التى يعرضها الطوافون فى أيام السوق أو فى يوم الخميس من كل أسبوع ، يعرضونها فى السوق ويمرون بها على الدور ، وليس لى فيها أرب ولا منفعة ، إنما هى قصص لا تعجبني ولا تروقنى وسحر لا أحسنه ، وصلوات دينية لا أعرف منها قليلاً ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق ، هذه التي تأتي من القاهرة والتي كنت أجد اللذة والمتاع حين أخذها في يدي أو حين أنظر إليها ؟ أحيل بيني وبينها آخر الدهر ؟ أقضي على أن أرد كما كنت فلاحه من بنات الريف تنفق نهارها في هذا العمل الآلى الذي لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من النبات والحيوان ؟ كلا ... !

هؤلاء فتيان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة ، وقد رأيتهم يفرغون حقائبهم . فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام المختلفة المتباينة ، منها الضخم ومنها النحيف ، منها مثقن الطبع ومنها ما أهمل طبعه إهمالا ، منها ما جلد في عناية وما ترك على حاله التي خرج بها من المطبعة ! ولكن أين منى هذه الكتب ؟ وكيف السبيل إلى النظر فيها ؟ بل كيف السبيل إلى الوصول إليها ؟ هنا حدثتني نفسي بما لم تحدثني به قط ، فأنكرت حديثها بعض الشيء ، ولكني لم ألبث أن عرفتته وقبلته واطمأننت إليه ثم صممت عليه تصميما . وأى بأس في أن أختلس الكتاب اختلاسا فأنظر فيه وقتا طويلا أو قصيرا ، ثم أردته إلى مكانه لم يمسه بأس ولم يصبه مكروه ؟ أسرقة هذه ؟ ألثم هذا الذي أنا مقدمة عليه ، إن وجدت إلى الإقدام عليه سبيلا ؟ والله يشهد ما سرت ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس إلا هذه المرة . والله يشهد ما لمت نفسي على ذلك ولا أشفقت عليها من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب ، وإنما قضيت أسابيع غريبة فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسى منها حظا ، وفيها خوف وإشفاق ،

وفيه بين ذلك لذات لن أنساها . فكم خدعت أهل الدار ، وكم تغفلتهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيته بيني وبين ثوبي ، ثم انخرت به إلى حيث اتخذت لنفسى مأمناً لا أخشى أن يُعثر عليّ فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظرات طوالاً أو قصاراً تغريبي به أو تصرفني عنه ، وأنا أجد لهذه المخادعة ولهذا الخوف وهذه القراءة لذة غيرت حياتي تغييراً وكادت تصرفني عن هذه الخواطر التي كانت تصاحب نفسى وتملأ قلبي وترسم أمام عيني بيت الأمور وبيت المهندس صورة خديجة وصورة هذا الشاب . نعم ! كادت هذه الحياة الجديدة تصرفني عن هذا كله ، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح الماء على سادتي في ليلة من هذه الليالي : سمعت حديثاً عن الأمور اضطربت له نفسى واضطراباً ، ولولا أنى أنفقت جهداً عنيفاً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آنية ، فقد نقل الأمور من المدينة إلى مدينة أخرى في أقصى الأرض مما يلي البحر ، وكان هو الذى طلب هذا النقل وسعى فيه وتوسل إليه بفلان وفلان . والناس يهمسون بأنه إنما فعل ذلك ليضرب بابته من جوار المهندس الذى كان قد خطبها ثم قطعت الخطبة . والناس يختلفون ، فمنهم من يرى أن المهندس هو الذى قطع الخطبة لأشياء بدت له ، ومنهم من يزعم أن الأمور هو الذى رفض الخطبة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له ، وكظمت عواطفى وأكرهت نفسى على التزام الأمن والهدوء ما اضطرت إلى الخدمة ، فلما أتيت لى العزلة

أرسلت نفسي على سجيئتها فقضيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محزونة .
ولكن الصباح لم يسفر حتى أسفر معه للنفس أمل لا يخلو من حزن ولكنه
أمل على كل حال ، من أجله أفسدت الأمر على خديجة ، ومن
أجله خرجت من بيت المأمور ، ومن أجله نفيت نفسي في هذه
الدار . فقد خلا الجوى في المدينة ، وأصبح من الممكن أن تتصل
الأسباب بيني وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح من الممكن بل
أصبح مما لا يد منه أن يكون الصراع بينه وبينى ، فليعلم بعد وقت
قصير أو طويل أذهب دم هتادى هدراً أم لا يزال على هذه الأرض
من هو قادر على أن يظفر له بالثأر ويشقى نفسه بالانتقام ؟ ...

٢٠

وقضيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة ، مرتبكة أعظم
الارتباك ، تضطرب الخواطر في نفسي وتختلف وتزدحم دون أن أقدر
على تنظيمها أو أجدر لى متفذاً منها إلى هذا الخاطر الذى كنت أطلبه
وألح فى طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن يد من أن أتصل بخدمة
هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السبيل إلى ذلك مبصرة ، فأنا عاملة فى
هذه الدار لا أجدر من أهلها ما يزعجنى عنها أو ما يضطرنى إلى فراقها ،
وسكينة عاملة عند المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما
يصرفه عنها أو يزهد فيها .

وكننت أجهد نفسي أثناء هذه الأسابيع إجهاداً شديداً متصلاً

أتمس مخرجاً لي من هذه الدار ومخرجاً لسكينة من تلك ، وأريد مع ذلك أن أجنب الشر والإساءة ما وجدت إلى اجتنابهما سبيلاً . وكثيراً ما سمعت سادتي يتحدثون أثناء الغداء أو أثناء العشاء عن مبادلة يسعى فيها أكبر أبناء الدار وكان موظفاً في إقليم بعيد ، وكان يريد ويريد أهله أن ينتقل إلى المدينة التي نحن فيها ليعيش بين أهله سعيداً موفوراً ، فكان يسعى في أن يبادل موظفاً في المدينة ليأخذ كل منهما مكان صاحبه . وكان التراضي قد تم بينهما بعد أخذ ورد وبعد سعي وإلحاح ، وكان السعي متصلاً في أن ترضى الحكومة عن هذه المبادلة ، وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة ويبعد حيناً آخر ، وكان رب البيت وريته يحرصان على تحقيق هذا الأمل أشد الحرص ويكثران الحديث فيه ، وكانا يتصوران ابنهما وقد عاد إليهما بعد طول الغربة في أقصى الصعيد ، وكانا يهثان له في أحاديثهما غرفته وينظمان فيها الأثاث ويذكران ما يجب أن يشتري من المتاع ، ويتحدثان بما سيتغير من نظام الدار إذا أقبل هذا الشاب الذي تعلم في المدارس وتعود حياة الترف والنعيم ، والذي يتكلم الفرنسية ويتأنق في اللباس ، ولا يأكل كما يأكل أهل الدار جالساً على الأرض إلى هذه المائدة المنخفضة ، عليها هذه الصينية النحاسية البيضاء في الأيام العادية ، وعليها تلك الصينية الصفراء التي لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكلفون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يرص الخبز عليها رصاً فيخفي هذه النقوش إخفاء .

نعم ! ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار ، وإنما كان

بصطنع هذه الأدوات التى يصطنعها المترفون . وكان سيد البيت وسيدته يتحدثان بذلك منكرين له بأطراف ألسنتهما معجيين به أشد الإعجاب فى قلوبهما . وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما الظاهر وإعجابهما الخفى ، فيسبون صامتين ما أقام أبوهن ، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة ، وأمهم تسمع لهم وتنظر إليهم ، منكرة عليهم بطرف اللسان معجبة بهم فى أعماق القلب . وكنت أنا أسمع الأحاديث كلها فألهو بها وأطيل التفكير فيها . فهل من سبيل إلى أن تم بين سكينه وبينى مبادلة كهذه التى يراد أن تم بين ابن هذه الدار المنى فى أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطى المنى فى أدنى الأرض ؟ !

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة ؟ بل كيف السبيل إلى عرضها على سكينه أو التحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعليل هذه المبادلة لسكينه ؟ وما الذى يزعجها عن منزلها هذا الذى نطمئن إليه وتسود فيه لا تكاد تدعن لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة ؟ ما الذى يزعجها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التى لا حظ لها من ترف والتى ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكينه حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف ، فكيف يكون تعليل ذلك لسيدها ؟ وكيف يكون تعليل ذلك لسادى ؟ كلا ! هذه أحلام ليس إليها من سبيل . ومهما أجتهد ومهما أحاول فلن الشر لا يتأل إلا بالشر، والإثم لا يدرك إلا بالإثم، ولن أبلغ هذه الغاية التى أسمى إليها حتى أقتحم فى سبيلها غمرات

وأقترف في سبيلها آثاماً .

لا بد إذن من بعض الشر ، ولا بد من أن أمكر حتى أقصى عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تقصى سكينته عن بيت المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين تنهأ له النفس ! وما أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير ! ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد ؟! لن أجد في تحقيق ما أريد جهداً ولا مشقة إذا رضيت نفسي ما لا بد من أن ترضاه من الشر ، واستباححت ما لم تكن تستيحه من الإساءة والإيذاء .

فأما سكينته فأمرها مبسور . وإنما هي زيارة للبستاني وإغراء له ببعض المال ، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة ما وسعه ذلك ، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأخرجت سكينته من الدار سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتمس خادماً ، ويومئذ ...

وأما مخرجي أنا من هذه الدار التي أعمل فيها فليس أيسر منه ولا أهون . لقد دخلت الدار ولم تكن في حاجة إلى ، وإنما قبلني أهلها رفقاً بي وعطفاً على وإحساناً إلى ورعاية لعهد أمي . فأنا عندهم ضيف ، أستطيع أن أرحل متى شئت ، وأستطيع أن أقيم ما أحببت . على أن ظروف الحياة لم تضطرنني إلى أن أتكلف الاستئذان في الرحيل والتماس العلل والمعاذير ، وإنما قضت بأن أخرج من هذه الدار إخراجاً وأنيذ منها نبذاً . وإني لأذكر قصة ذلك الآن فأبسم لها ابتساماً ملؤه الحنان والحب . وكثيراً ما ذكرت هذه القصة قبل اليوم فامتلاً قلبي خباً لهؤلاء الناس وحناناً إلى هذه السداجة التي كانوا يعيشون فيها والتي

كانت تصور لهم أمورهم كلها في صورة الجلد الذى لا يشبه جلد ،
والتي لا يتحدث بها الناس في هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين
إن كانوا قساة القلوب ، وابتسموا لها عاطفين إن كانوا يقدرون الذكرى
ويحبون الحياة التي لا تكلف فيها ولا رياء .. !

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التي أتبلوا
بها من القاهرة ، يقرعون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم عنها شيء .
وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيطئون ، وكثيراً ما كان إبطاؤهم
ينبذ أباهم وعلوهم بهم إعجاباً ولم حباً . وكان أهل الدار جميعاً ، وربما
أولم ، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على
هذه الكتب حباً للعلم وإثارة للدرس وهداً في التحصيل ، وكانوا
يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفهم العمل طول
العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم
لذة الرياضة والاستمتاع بشيء من النعيم . وإنما هي الكتب إذا أصبحوا ،
وهي الكتب إذا أمسوا ، وهي الكتب إذا آن لهم أن يقلبوا بعد الغداء .
ما أشد فتنة العلم هؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب
ويأخذون منه بأعظم الحظ ، ويريدون أن ينبغوا فيه وأن يظفروا
بالشهادات في غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون
المرتبات في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !

وكان أهل الدار يحلون في هذه الأحاديث لذة ، ويطلقون
خيالهم فيها إطلاقاً . وكانت سيدة الدار تمثل هذا كله وتتوسل في
تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء الساذج اليسير الذي تجرى به

ألسنة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر في الوعد بالندور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولي .

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشرطاً من الليل ، حتى لقد كان يغيظ أصحابه ويملاً قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملاً قلبها خوفاً من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطيب الكريم يجد لذة في أن يجلس الوقت من حين إلى حين وينتظر الفرصة التي يغيب فيها أبنائه عن هذه الغرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فينسل إلى الغرفة انسلالاً كأنه اللص ، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التي نظمت عليها الكتب تنظيمًا ، ويلقى على هذه الأسفار نظرات ملؤها الإكبار والإجلال ، وقد يمد يده في تحفظ واحتياط إلى هذه الكتب فيمسها مساً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً ، كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار قبورهم أمواتاً .

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة ، فيأخذ كتاباً منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقراً فيه سطرًا أو أسطرًا يفهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها ، فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعاناً فيما ينبغي للعلم من الغرابة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف

آباؤهم ولا يفهمون ولا يسيغون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل ميلاً فيه كثير من الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبنائه ببعض ما يقرعون ويعطوه شيئاً من هذه الكنوز التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقيماً دائماً لا يكاد يلمح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم نفوراً وازوراراً ، فيضطر إلى الصمت والرضا بما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه يبخل العلماء وضمنهم بالعلم وإثناؤهم أنفسهم بلذاته وثمراته ، يتحدث بذلك مثلاً محزوناً أو نائراً مغضباً ، فتعزبه زوجه وتهدهه وتزعم له صداقة أو متكلفة أن العلماء إنما يبخلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون ، فيقبل منها ذلك أو يجادلها فيه .

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتبهم بمكان الإعجاب والتقديس من هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب ، وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً منغصاً كله شر ويأس ، وأمل خائب وظن كاذب . وكنت أنا مصدر هذا البلاء ، فكفرت بخروجي من الدار عما جنيت من سبته ، وما كان أسعدني بهذا الخروج ! ..

ولم أكن أقل من صاحب البيت كلفاً بالانسلال إلى غرفة الكتب والنظر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قدمت أتجاوز حظ صاحب البيت من هذا كله فأختلس الكتب اختلاصاً وأخفيها بيني وبين ثوبي ، وأخلو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ، ولكنها كانت تمتلئ دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المنظر قبيح الشكل ، ردىء الطبع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً متصلاً ،

يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشدد اختصاصهم فيه ، ثم ينتهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت معلوم . فدفعت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبع ما يحضيه شكله اللصيم وطبعه الرديء وورقه الحقيق وجلده المبتذل البالي ، من هذا السحر الذى خلب هؤلاء الشباب ودفعهم دفعاً إلى التهاك عليه والتنافس فيه . وكثيراً ما التمت هذا الكتاب قلم أجده قريب المثال بين هذه الكتب المخصوصة المعروضة ، فتيئت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون من النظر فيه حتى يخفوه إخفاء . قلم يزدنى ذلك إلا كلفاً به وتتبعاً له وإلحاحاً فى البحث عنه . وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعورون إلى الغداء ، وأن الغرفة ستخلو لى ساعات من نهار ، وأنى سأستطيع أن أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأجده ولأنظرون فيه ولاقضين معه أطول ما أستطيع أن أقضى معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى وليمتهم ، وتخففت من أثقال ما كان على من عمل ، فانسلت مسرعة وشيقة سريعة النشاط إلى الغرفة ، ومضيت فى البحث غير قليل ، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغى . فباللهجة وباللغة ، وبالسعادة وبالرضا ! هذا الكتاب بين يدي دميم الصورة قبيح الشكل حقير الورق رديء الطبع ، ولكن اسمه « ألف ليلة وليلة » . وأنا أقرأ فيه وأنا أمضى فى القراءة ، وأنا أنبى نفسى وأنسى مكانى . ولكن ماذا أسمع وماذا أرى ؟ هذا باب الغرفة يفتح فى غير احتياط ، وهذا رب الدار يدخل ! فقد كان مثلى ينتظر أن تخلو له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإعجاب ، لينظر إليها نظرة التقديس ، وليلد إليها يده ملاطفاً مداعباً ، ثم ليقراً من أسماها وسطورها

ما يهر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يرانى أنظر فى كتاب ،
 وفى كتاب لم يتعود أن يراه ! فهو يسألنى ماذا أصنع ، وما أنا وهذه
 الكتب ؟ وأحاول أنا أن أخفى الكتاب الذى كنت أنظر فيه ، ولكنه قد
 أسرع فأخذه من يدى ، ثم زجرنى زجراً عنيفاً وطرذنى من الغرفة طرداً .
 على أنه لم يطل المقام فى هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل
 ثائراً ساخطاً ، وأقبل على زوجه وفى يده هذا الكتاب فألقاه فى وجهها
 إلقاءً ، واندفع فى غضب لا حد له وفى شتم لا ينهى
 ساخطاً على زوجه المسكينه وعلى أبنائه البائسين ، صاباً عليها نلواً
 متصلة بالكوارث والأحداث ، معلناً إليها فى غيظ عنيف مرة وفى حزن
 أليم مرة أخرى ، خيبة أمله فى هؤلاء الأبناء الذين كان يظنهم محبين
 للعلم مؤثرين له منها الكين عليه ، فإذا هم أصحاب عبث وهو ومجون ،
 وإذا هم ينفقون وقته فى قراءة هذا الهديان . ومن يدرى ! لعلهم يتفقون
 وقته فى هذا أثناء إقامتهم فى القاهرة على حين يظن هو أنهم يجلدون
 ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يجد ويكد وينفق حياته وماله
 لمضى أبنائه فى هذا السخف وفى هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يضيعون
 وقتهم وجهدهم وجد أبيضهم وكده وماله وأمله فحسب ، ولكنهم يخربون بيت
 أبيهم بأيديهم كأنهم يجهلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا خربه تخريباً .
 ثم يعود الرجل إلى غرفة الكتب فيقلب كل ما فيها تقلباً ، وما
 يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها منتصباً
 ساخطاً معاً ، ثم يمزقها تمزيقاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار !
 وقد نفص يوم الأسرة كله فلم يلق الرجل ولا أهل الدار فيه طعاماً .
 وعاد الفتيان آخر النهار ، فلا تسل عما سمعوا ولا عما رأوا ، ولا

عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا . ولكن النتيجة الأولى والأخيرة فيما أظن لهذا كله هي أنى طردت من الدار طرداً . ورجعت إلى بيت زنوبة وإلى غرفتها ، فقضيت فيها أسابيع أنتظر ما يجرى به القضاء ، وما تنهى إليه حيلة البستانى الذى ضوعف له الأجر .

٢١

« ستعملين إذا كان الغد يا آمنة ، وستعملين عملاً يرضيك كما لم يرضك عمل من قبله قط . لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذى دفعتك الحماقة فيه إلى هذا الذنب العظيم . ستعملين عملاً مريحاً فيه مال كثير ، ونعيم كثير ، ومتاع كثير . ستعملين . . . ستعملين وستسعين . ليتنى كنت مكانك ، ليت سى تعود إلى حيث أتت من العمر . ستعملين وستسعين . . . »

قالت ذلك وهي مضطربة أشد الاضطراب ، مبهجة أشد الابتهاج ، يدفعها القرح والمزح إلى أن تأتى حركات مختلطة فيها الرقص والقفز ، وفيها الجدل والمزح ، وفيها الدعاية التى ليس بعدها دعاية والمجون الذى ليس بعده مجون . حركات على الوجه ، وحركات باليدين ، وحركات فى الجسم كله مجتمعاً وفى أعضائه متفرقة . حركات هى إلى الجنون والاختلاط أدنى منها إلى القرح المعتدل الذى يصدر عن نفس مرحة وعقل متزن . ولم تكثف زنوبة باضطرابها هي ، وإنما انقضت على انقضاضاً ، فقبلتنى وأتهضتنى وراقصتنى ودارت بى حول الغرفة دوراناً متصلاً سريعاً حتى انتهت بى وبنفسها إلى السقوط ، كل ذلك وهي مندفعة فى حركاتها وأحاديثها ، لا تمكننى من أن أقول كلمة أو أنطق

بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد . قد استحالت إلى جنبة وأصبحت الغرفة ميداناً لا يضطربها المختلط الذى لم يقف ولم يهدأ إلا حين أسقطها الدوار وأسقطني معها على الأرض وحين أفأقت منه بعد قليل . . . هنالك استطاعت أن تتكلم كلام العاقلة ، واستطعت أن أسمع لها وأن أفهم عنها ، فعلمت أن المهندس فى حاجة إلى خادم ، وأنه قد أرسل يتقدم إليها فى أن تلتبس له هذه الخادم ، وأنه بمنحها على ذلك أجراً يختلف باختلاف الخادم التى تقودها إليه مع الصباح إذا كان الغد . وهى مبهجة لى وهى مبهجة لنفسها ؛ فما أكثر ما قدمت لهذا الشاب من خدم ! وما أكثر ما تفاضت منه أجر ما قدّمت ! ولكنها لم تقدم إليه يوماً من الأيام فتاة مثلى ، لها مثل ما لى من جمال الوجه ، واعتدال القد ، ورجاحة العقل ، ومهارة اليد ، والعلم بمحاجات الشبان المترفين . سيكون أجرها مضاعفاً ، أما أنا فأسعد السعادة كلها فى هذا البيت الأنيق الجميل ، وفى خدمة هذا الشاب المترف الغنى الوحيد . لن تأمرنى سيدة الدار ، ولن ينازعنى خدام الدار . سأكون وحدى صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت ! فقلبه مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه .

قالت ذلك وأرسلت شقيقها المرتفع ، وشخيرها المنكر ، وضحكها العالى ، ثم انقضت على وضعتني إليها ضماً عنيقاً وهى تقول : « إني لأغبطك وأحسدك معاً . أغبطك لأنى أحبك ، وأحسدك لأنى أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوى هذا البيت من نعم » .

وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرفق بها ، فلا أنبئها بأنى قد دبرت لهذا اليوم تدبيراً ، وأعددت له إعداداً ، واشتريته بالمال ، وانتظرت مقدمه واثقة

بأنه سيقدم ، مطمئنة إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ، وأمرى كله في حاجة إلى الحزم وفي حاجة إلى المكر والكيد .

نعم ! لم أنبأها من هذا كله بشيء ، ولم أنبأها حين أصبحنا بأننى لم أذق النوم لحظة في هذه الليلة الطويلة التى فرقت بين نفسين ، وإنما قضيت الليل كله يقظة ، أفكر في أمس البعيد وأفكر في اليوم ، وأفكر في غد وفيما بعد غد ، على حين كانت تحلم بما باعت وما ستبيع من حب ، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر ، وبما ذاقته وما تبقى لها أن تذوق من هو ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتى حركات مختلفة ثلاثتها ، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بجمل متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأسمعه ، فأرئى لها وأرئى لنفسى أيضاً : أرئى لها في حياتها هذه الصغيرة الحفيرة التى خلت من كل حس دقيق ، أو شعور عنيف ، أو تفكير عميق . وأرئى لنفسى من حياتى هذه المضطربة التى يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتنعمها الأحداث والخطوب .

نعم ! قضيت الليل كله مؤرقة . وليس من شك في أنه كان طويلاً ، وليس من شك في أنه كان ثقيلاً لو فرغت له ، ولكنى شغلت عن الليل ببنات الليل . شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك أيتها الأخت العزيزة البائسة هذه التى لم تكد تحس أنى خلوت إلى نفسى حتى تراءت لى ، ثم دنت إلى ثم استقرت منى غير بعيد ، ثم أخذت تتحدث إلى نفسى حديثاً أعقله ولا أسمعه ، وأجد له في قلبي وقعاً لا ذعاً حلواً معاً . صورتك هذه التى رأيتها كما كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب ، وكما كنت أراها في بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلتفت

إلى شيء ، وكما كنت أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكانى منك ، وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك ، وحين كنت أواسيك وأعزيك وأجتهد فى أن أفيض عليك السكينة وأشيع فى قلبك الأمن والهدوء .
 ها أنت ذى تسعين إلى وتجلسين إلى جانبي ، وهذا رأسك قد مال حتى استقر على كتفى ، وهذه يدي تلاطف خدك وتبللها دموعك المنهمرة الصامته . وها أنا ذى أخلى بينك وبين البكاء حيناً وأمضى معك فيه ، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه . وهذه يدي تلاطف شعرك الغزير ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه . ولكنك تنهضين وتذهبين . ثم تعودين لى بعد قليل واجهة ثم مروعة ، وأنا أستقبلك رفيقة بك مهتة لك . وهذه الأشباح الحمراء تترأى لنا كما كانت تترأى لنا فى بيت العمدة قبل أن نأخذ فى هذا السفر الأثيم ، ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمى وتنهضى إليها ، وتستحيلى إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء ! وها أنتن أولاء تطفن بى وتضطربن من حولى وتستبقن إلى أذنى تردن أن تلقين فيهما ألوان الحديث . وها أنا ذى مروعة مفاجئة ، أرى الجنون وأشفق منه وأهم أن أصبح ، وأذكر مكانى فى دارنا تلك فى أقصى الريف نحو الغرب أثناء العلة . وها أنا ذى أرى ينبوع الكربة يتفجر منه ذلك الدم الغزير . وها أنا ذى أنهض خائفة موهلة ، أريد أن أفر من هذه الغرفة ، ولكن إلى أين ؟ !

نعم ! إلى أين والليل ساكن جائم ؟ وأين تستطيع فتاة مثلى أن تذهب والليل ساكن جائم ؟ لأوقظن هذه المرأة التى تختلف عليها الأحلام وتنعم بلذة النوم فى ناحية من نواحي هذه الغرفة . لأوقظنها ولأنفصين

معها بقية الليل في الحديث . . . ولكنى لا أكاد أسعى إليها حتى تأخذنى الأشباح الحمراء من كل مكان ، وحتى تسعى إلى أختى وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة ، وهى تلقى فى نفسى هذه الكلمات التى تقع منها مواقع السهام المحرقة : لا توقظيها إنها تخيفنا ، وإن يقطتها تطردنا ، ماذا تخافين منا ؟ لقد طالما ألفتنا وألفناك ، أفنسيتنا إلى هذا الحد ؟ كلا ! كلا ! لم أنسكن ولن أنساكن ، ولن أذودكن عن نفسى ، ولن أوقظ هذه المرأة التى تخيفكن . أقمن معى ، أطفن بى ، تحدثن إلى ، فن يدري ! لعل أن أكون فى يوم من الأيام واحدة منكن ، لعل أن أكتسى هذا الرداء الأحمر القانى الذى تكتسبونه والذى يدعونى إليكن ويخيفنى منكن . . . !

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز بحمله إلى الهواء من بعيد فيبلغنى نحيلا خشيلا ، ولكنه على ذلك يشيع فى سكون الليل كما يشيع الضوء فى الجو . . .

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يدنو منى شيئاً فشيئاً فيملأونى أمناً ودعة وهدوءاً ، وحزناً مراً . إنه يردنى إلى البقطة الخالصة التى تشعر بنفسها وتفكر فى نفسها وتذكر ما مضى على علم به وتقدير له ، وتستقبل ما سيأتى فى روية وبصيرة واستعداد للاحتمال . . .

نعم ! إن صوتك ليملاً أذنى ، وإنه ليمسلاً قلبى ، وإنه ليغمر نفسى ، وإنى أفهم عنه ما يريد ، وإنى لأذكر أختى ومصرعها ، وإنى لأعرف من دفعها إلى الموت ، كما أعرف من أذاقها الموت . وإنى لأعلم حتى العلم أنى ساعة إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فقيمة فيه حيث كانت أختى ، فهاهنا بما كانت تنهض به أختى

من العمل ، فنتهي بعد إلى شئ آخر غير الذى انتهت إليه أختى
فى ذلك الفضاء العريض . . .

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز ، وفهمت عنك ، وهذا عقلى
يثوب إلى ، وهذه قوى ترد على ، وها أنا ذى أنتظر الصبح لأسمى إلى
هذا المهندس وإن قلبى لمظلم أشد الإظلام ، وإن وجهى لمبتسم أجمل الابتسام .

٢٢

وأقبل سيدى الحديد على مبتسما راضياً يحدق النظر فى وجهى تحديقاً
طويلاً ، ثم يفصل النظر إلى جسمى كله تفصيلاً ، كأنه يتمتع متاعاً
يريد أن يشتره . ولو قد استطاع لهض إلى " فاخترنى بيديه اختباراً
وتعرفنى باللمس ، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من حياة ،
فاكتفى بهذه النظرات المتصلة الطوال التى تجرد المرأة من ثيابها تجريداً ،
والتي كنت ألقاها مضطربة لها أشد الاضطراب ناثرة لها أشد الثورة .

ولكنى كنت أتمالك ما وسعنى الجهد وضبط النفس ، حتى لا يرى
على اضطراباً ولا ثورة ولا شيئاً ينكره . وهو يسألنى عن اسمى ، وعن
أهلى ، وعن أمرى كله ، فألفق له من ذلك ما ألفق ، وأزين له من
ذلك ما أزين . وهو يسمع منى مصلداً لى أو غير حافل بما يسمع ،
إنما يريد أن يعرف صوتى ووقع حديثى . ثم هو يأمرنى أن أقبل وأن
أدبر ، وأن أدنو وأن أبعد ، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى
شمال ، وأنا أستجيب لكل ما يدعونى إليه . وقد هذا اضطرابى وسكنت
نفسى ، وعادنى صوابى ، وأنا أتحدث إلى نفسى بأن هذا الفتى يعرف
حقاً كيف يكون شراء الرقيق . . !

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أنى سألناه قائمة باسمه . أقبل إلى في ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح ، حتى أخذه شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعي قليلاً قليلاً : ماذا ؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت : لقد تجاوزت ثلثيه ، وما كان ينبغي لى أن أنام قبل أن ينام سيدى ، فما يدرينى ! لعله يحتاج إلى شيء .

قال وقد عاد إليه ثباته وهدهوء نفسه ، واسترد صوته شيئاً من قوته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتنهر منتظرة لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك قائمة كما تعودت أن أرى من سبقك في خدمتى . وكنت أقدر أنى سأجد فى إيقاظك بعض الجهد ، فلست أدري ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات ! قلت : فقد أرحمت سيدى من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل فى دورهم ؛ فليأمر سيدى بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمحاً وقد مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعت حتى لا تبلغنى : فإن سيدك يأمر أن تتبعه . ثم انحدر إلى غرفته ومضيت فى أثره . . .

وصدق المسكين أنى كنت أنتظره . ولو قد نفذ إلى قلبي واستمع إلى أحاديث نفسى لعرف أنى لم أكن أرقه فى انتظاره ، وإنما كنت أسامر أشباحاً حمراء لو رآها لملى قلبه رعباً ولول منها فراراً . ولكن لم ير إلا إياى ، ولم يفكر إلا فى ، وما له وللأشباح الحمراء !

٢٣-٢٣

وعدت إلى غرفتي بعد ساعة ، راضية عن تقسي كل الرضا ،
مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان ، فقد بلوت الخصم ولقيت العدو في
ميدانه الذي اختاره هو ، وكانت بيني وبينه مقدمات التضال ، فلم
أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبت له ثباتاً ، ثم انصرفت عنه
وقد علقته بين السخط والرضا ، ووقفته بين اليأس والأمل . لم أجد في
شيء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عناء ،
ولأنما هو الابتسام المطمع المغري ، والاحتشام الذي يفل العزم ويثبط
الهمم ، ويسيطر سلطان الحياء على النفس فإذا هي ترتد بعد امتدادها ،
وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراقه .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة يملؤها الهول ،
ويحرق بها الخطر ، وتنتهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا الشاب
فإنما ضعف واستثار ، ولما قوة وانتصار ، يتبعهما الطرد العنيف من
هذه الدار . ولكنني ملكت أمري وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة
الأولى مقدمة لا خاتمة ، وما أجل الفصل في هذه الحصومة إلى أجل
ظنه قريباً ورأيته بعيداً . وقد انصرفت عنه بعد أن أعتته على بعض أمره
وهيات له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف البال يظهر الرضا والابتهاج ،
وهو يقول : لا بأس ! إنك في حاجة إلى التريية والتمرين .

ولم أكد أثوب إلى غرفتي وأغلق بابها من دوني إغلاقاً محكماً حتى
تراعت لي أختي وهذه الظلال التي ترافقها ، كأنما كن ينتظرنني ليعلمن
علمي وليسمعن نبأ ما أبليت مع الخصم من بلاء . ولقد هممت أن

أتحدث إليهن ، وأقص عليهن ما سمعت وما رأيت ، وما عملت وما آيت .
ولكن ماذا ؟ إنهن ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلمعن في وجوههن الشاحبة
ابتسامة الرضا ، ثم يستخفين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً .
وكنت أظن أني سأنتظر معهن مطلع الفجر ، سامرة كما كنت أسمر
منذ حين قبل أن يرقى إلى سيدى كأنه اللص ، ولكنى ألتسهن من
حول فلا أرى لمن محضراً ولا مظهراً ، وألتسهن في نفسي فلا أظفر
مهن بشيء . لقد غبن عن عيني وغبن عن نفسي ، وكأنهن أمرن
الدكري أن تتبعهن وتمضي إلى حيث مضين . فأنا أريد أن أذكر
فلا أستطيع ، وأريد أن أفكر فلا أجدر سبيلاً إلى التفكير ، وأنا آوى
إلى مضجعي وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن للقوة البدنية حداً ،
ولكن للتعب سلطاناً هو بأسطه ، وغاية هو بالغها . ولقد قضيت ليلة
لم أذق فيها النوم ، وهذه الليلة الثانية قد انقضت أكثرها ، وكادت توالى
نجمها تتغور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم كرهت . . .

ومن أجل هذا فارقتى أيتها الأخت العزيزة ، وفارقتى معك هذه
الظلال الحمراء . إنكن لرفيقات بي شقيقات على . وما يمنعكن من
ذلك وأنا عندما تُردن ، لم أهين ولم أضعف . ولم أتهمز لهذا العلو
الماكر القوي ! لبت شعري ! أكتن ترفقن بي ، وتشفقن على ،
وتنصرفن عني وتخلين بيني وبين النوم ، لو أني خالفت عن أمركن
واستجبت أو أظهرت الاستجابة لذلك الدعاء البغيض الذي كان يرسله
إلى سيدى بالعين واليد واللسان ؟ !

على أن الأمر بين سيدى وبينى لم يلبث أن تعسر بعد يسر ،
وتعقد بعد سهولة ، واشتد بعد لين . فلكل شيء أجل ، وللصبر أمد
ينتهى إليه ، وللمطاوله غاية تقف عندها ، والمياسرة خير إلا أن تستحيل
إلى ضعف وإذعان . وما ينبغي لسيدى أن يظهر مظهر الضعيف
المدعن لخادم مثلى ليس لها حول ولا طول ، وهى لا تأوى إلى ركن
شديد ، ولا تعتر بقوة تحمىها من بأسه وتعصمها من سلطانه ، وإنما
هى كلمة منه تبقىها فى داره عزيزة مكرومة أو تخرجها من هذه الدار
دليه مشردة . وقد علق سيدى هذه الكلمة فى طرف لسانه أياماً وأياماً ،
يهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفتيه وكادت تتجاوزهما إلى الهواء الذى
يحملها إلى رُدَّتْ إلى مكانها واستقرت فى موضعها من طرف اللسان
استقراراً وأطبقت شفتاه من دونها إطباقاً .

ومدَّتْ لى أسباب البقاء فى هذه الدار يوماً أو بعض يوم ريثما
يخرج سيدى لبعض شأنه ، ثم يعود فيدعونى إلى ما كان يدعونى إليه
فى هذا الإلحاح المتصل ، المضحك الحزن ، الذى يفسد على الرجل
أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه القار ، عزيزاً كأنه السيد
وذليلاً كأنه العبد . ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من هذه الكلمات
الجوفاء التى يملؤها الاستعطاف حين تكون نذيراً ووعيداً ، ويمأؤها
المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاء ، وتصور دائماً نقيص
معانيها الظاهرة ، وتعتبر دائماً عما لم يُرد صاحبها إليه ، ويمأ نظراته بهذا
الشرر المحرق حيناً ، ثم بهذا الانكسار الدليل حيناً آخر ، ويجعله يدور
حول غايته التى يشتهىها وأمنيته التى يبتغىها ، كما يدور العابد حول

الصنم ، وكما يدور اللص حول البيت يتغنى ثغرة ينسل منها إليه !
نعم ! كذلك كنت ألقى سيدى مع الصبح باسمه مشرقة الوجه ،
أحمل إليه قدح الشاي وبعض الفاكهة قبل أن يشب من سريره . وقد
كان سيدى يحيا حياة الإنجليز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى
عيناه وقد ملاهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان عظيمة التناقض ،
فيها الحب وفيها البغض ، فيها الأمل وفيها اليأس ، فيها الوعيد وفيها
الخوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها القرب وفيها البعد . وأنا أرى
هذا وأحسه وأفهمه ، ولكن ؛ يا لقوة النساء ! إني لأقبل عليه بالشاي
والفاكهة والنحية كأني لا أرى شيئاً ، ولا أحس شيئاً ، ولا أفهم شيئاً ،
ثم أنصرف عنه وفي نفسى ما فيها من الرضا ، وفي قلبي ما فيه من الإشفاق ؛
فقد كنت راضية عن نفسى وساخطة عليها ، وقد كنت شامته في
سيدى ومشفقة عليه ، وقد كنت أرضى لنفسى ما أنا فيه من الإطماع
والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذب هذا الشاب الذى قتل أختى .
وكننت أنكر على نفسى هذا كله ، وأراه لعباً بالنار ، وتكلفاً للشر ،
وامعاناً في الإثم . وقد كنت أرى أنى قد خلقت لنفسى جواً من الرذيلة
أعيش فيه إذا أصبحت ، وأعيش فيه إذا أمسيت ، وأتنفس هواءه
المنكر ، وأبعث فيه سماً زعافاً . فما هذا الكيد الذى أكيدته ؟ وما هذا
المكر الذى أمكره ؟ وما هذا التفكير الآثم الذى أملأ به رأسى وقاى ؟ !
أصبح فأفكر في هذا الشاب لأغويه وأضنيه وأنقص عليه يومه ، وأمسى
فأفكر في هذا الشاب لأدنيه وأقصيه وأورق عليه ليله ؛ وأنا فيما بين
ذلك لا أنفك أفكر فيه ، عاطفة مرة ، وصادفة مرة أخرى ، لينة
حيناً وقاسية حيناً آخر .

هذا كثير ! وأكثر منه أن تفرغ له فتاة كانت تستطيع أن تفرغ
لما هو أظهر منه وأنتى ، وأكثر من هذا وذاك أن يستسلم هذا الشاب

لما يغمره من ضعف ، ويتورط فيما ييئ حوله من شباك ، ويتعلق
بفتاة مهما تكن فهي ليست شيئاً ، والفتيات غيرها كثير يستطيع
أن يلتمسهن متى شاء وكيف شاء . وأى شيء أبسر من أن يرسل
بستانه إلى زنوبة أو إلى امرأة أخرى من أشباه زنوبة ، فلا ينقضي
اليوم حتى تكون عنده فتاة أو فتيات يختار من بينهن من يشاء ! فما
أكثر هؤلاء الفتيات اللاتي يلتمسن العمل في المدينة قد نشأن فيها أو
انحدرن إليها من الريف كما انحدرت أنا منذ أعوام ؛ ولكن نفس الإنسان
ضعيفة حقاً ، وقوية حقاً . لقد أقبلت على نفس سيدى كما أقبلت
على غيرى تلتمس عندى الحب ولذاته وآثامه ، فلما وجدت منى امتناعاً
عليه وصدوداً عنه ونفوراً ملحاً منه ، أعرضت عن الحب ولذاته وآثامه ،
أو أرجأت الحب ولذاته وآثامه وتعلقت بى أنا ، تريد أن تقهرنى وتغلبنى
على أمرى وتتصر على ، وتظفر منى بما تريد .

فسيدى لا يطلب عندى الآن حباً ولا لذة ولا إنمأ ، وإنما يطلب
إلى خضوعاً وإذعاناً واستسلاماً . هو يريد أن ينتصر لا أن ينعم .
ومن يدرى ! لعله إنما يؤجل إقصائى عن داره حتى يتم له النصر ،
وينتقم له القوز ، فيخرجنى ذليلة صاغرة قد آمنت له وأذعنت
لسلطانه ! ويكنى أن يخطر لى هذا الحاطر وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد ،
ملحة فى الحصام ، قد نسبت الانتقام أو كدت أنساه ، وأعرضت
عن أختى وظلالها الحمراء أو كدت أعرض عنهن ، ولم أتمثل إلا عدواً
يريد أن يقهرنى ، ولا بد من أن أقهره ، وسيداً يريد أن يبسط سلطانه
على ، ولا بد أن أبسط سلطانى عليه .

وكذلك اتصلت حياتى فى هذه الدار هادئة فى ظاهر الأمر
مضطربة أشد الاضطراب وأعظمه تِكْراً فى حقيقة الأمر . ألتى سيدى
باسمة ويلقانى باسمها ، ثم لا يتصل اللقاء بيتا حتى يستحيل الابتسام

إلى عبوس ، والرضا إلى مسخط . وإذا هو يدعو فآني ، ويلج في الدعاء
فألح في الإياء ، ويغري فأرتفع عن الإغراء ، وينذر فأستخف بالندير ،
ويستعطف فأقسو على الاستعطاف .

ثم - يا للهول ! - ماذا أرى؟ وماذا أسمع؟ وماذا أجد؟ هذا سيدي
ماثلاً بين يدي يتلطف ويترفق ثم يستطعم ويستجلى ، ثم هذا هو
جائياً بين يدي كأنه يتقدم إلى الصلاة ، ثم هذا هو باكياً في صمت ،
ثم هذا هو مجهشاً بالبكاء ، وما أنا ذى أكاد أضعف ويكاد يأخذني
الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها ونفسي كلها وأدعو إلى أختي وظلالها
الحمرء ألتس منهم العون ، وأستمدن قوة إلى قوة .

وأمضي بعد ذلك فيما كنت فيه من إياء ، ثم ينتهي الأمر بيننا
إلى شيء يشبه المواجهة ، وإذا أنا قد أخلصت له ولنفسي ، وإذا
هو قد أخلص لي ولنفسه ، وإذا نحن نتحدث في هدوء وأمن واستقرار .
فأما هو فقد استيقن اليأس وعجز عن احتمال ، وأما أنا فأهون عليه
الأمر مخلصه صادقة وأزين له الانصراف عني إلى من أحب وما أحب
من التحليلات والخدم واللذات ، وإذا نحن نتفق على أن نفترق ،
وإذا هو ينصرف عني على ألا يراني في الدار إذا عاد إليها . وأنا أقبل
ذلك راضية عنه سعيدة به ؛ فقد شمت هذه الحرب وضعفت عن
هذه الحصومة ، وكرهت هذه الحياة التي تملؤها المطاولة والمحاولة ،
وتثقلها المهاجمة والمقاومة ، وقنعت من الغنيمة بالإياب أو بشيء خير
من الإياب . فأسأخرج من الدار ظافرة بعض الشيء . أليس قد عجز
هذا الشاب الجميل الوسيم المترف الغني القوي أن يبلغ مني ما بلغ
من أمثالي ؟ أولست أخرج من هذه الدار وقد جرعت مرارة الهزيمة
وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات
لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء ؟!

ولقد انصرف عني هادئاً وقد أظهر الرضا ، وفرغت لأمرى أتياً للرحيل
 مزمنة ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقم في المدينة ولا أعود إلى
 أقصى الريف ، وإنما آخذ قطاراً من هذه القطارات التي تمضي إلى
 الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض
 الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه . وها أنا ذى قد حزمت أمرى
 وجمعت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج . ولكن البستاني موكل
 بالدار يمنعني أن أخرج منها ويحول بيني وبين الباب ، وينبئني بأن سيده
 أتى إليه أثناء انصرافه أمراً حازماً صارماً أن يحول بيني وبين الطريق ،
 وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع لمسكني في الدار حتى يعود .
 وإذا فلم يكن جاداً حين اتفق معي على أن نفرق . وإذا فلم يكن هادئاً
 حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا ، وإنما كان مكرراً
 مخادعاً . ومن يدري ! لعله كان صادق العزم خالص الرأي ، فلما
 انصرف عني تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن
 يرسل هذه الفتاة ولما يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كدت أستئثس من ذلك الخاطر الذى كان
 يعيننى أول الأمر على المقاومة أو يغوينى بها أو يدفعنى إلى الإغراء
 والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع ! فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب
 فى أرباب . إنه يشبهنى كما اشتبهى غيرى من الفتيات ، وإن امتناعى
 عليه قد زاده حرصاً على وتعلقاً بى . ولست أكذب نفسي فكثيراً
 ما سألتها : أترى شهرته قد استحوطت إلى حب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة
 أنه لا يحبنى ، بل لم يحبني قط ، وأنه لا يشبهنى ، ولعله يزدرينى ،
 وإنما يريد أن يقهر فى عدواً متمرداً وخصماً عنيداً ؛ فلا تلقين البأس
 بالبأس ، ولا تلقين العناد بالعناد .

وما كان أيسر الهرب لو أتى رغبت فى الهرب أو فكرت فيه ،

لكنى كنت أريد أن أترك الدار جهرة لا سرّاً ، وعلى علم منه لا على جهل . ومن يلرى ! لعل لم أكن أحب أن أترك الدار ، وإن كان هذا الخاطر لم يعرض لى ظاهراً جلياً . وهو يعود مع المساء ، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء ، ويتفق ليله كله فى الدار لا يسمر ولا يلنى أصحابه . ومن يلرى ! بم كان أصحابه يعللون انقطاعه عن السمر وإثاره للغزلة . ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهر الرضا ، ويلقانى كما انصرف عنى مبتسماً فى كآبة ، وهو يسألنى : أما تزالين هنا وقد فارقتك على ألا ألقاك إذا عدت ؟ !

— أجل ! فارقتنى على ألا تلقانى ، ولكنك أمرت خادمك ألا يخلى بينى وبين الطريق .

— ومن زعم لك هذا ؟ لقد كذبتك الخادم ، وما أرى إلا أنه حريص على بقائك ، كاره لفراقك ، ومن يلرى ! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذى سماك لى ، وهو الذى أنبأنى بمكانك ، وهو الذى جاء بك إلى هذه الدار . إنى إذن لأحتمق ؛ لقد خدعنى هذا البستانى ، ولقد اتخذ دارى مسرحاً للهوى وهواه . فأنت إذن لا تعرضين عنى ولا تمتنعين عنى لإثارة الشرف واستبقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد وضاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تقبلى على هذه الدار . وفى سبيل من ذهب الشرف ؟ وفى سبيل من ضاع العفاف ؟ فى سبيل هذا البستانى الذى تهوينه ، وما أشك فى أنه يهواك .

وكان هادئاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث ، حتى لم أكن أشك أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة إلى استئناف ما بيننا من الخصام . ولكنه لم يكذب على نفسه فى حديثه حتى أخذ هدوؤه يفارقة شيئاً فشيئاً ، ولم يكذب ينتهى إلى غايته حتى كان غضباً كله ، وشرّاً مستطيراً يتمثل إنساناً يتكلم ويتحرك ، ذاهباً جائياً متبهاً للبطش لا يكاد يمتنع عنه

إلا في جهد شديد .

على أنى لقيت عنقه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قدم إلى من ألوان العنف واللين ، ومن ضروب السخط والرضا ، ثابتة مطمئنة ، وقلت له في هدوء : لا بأس عليك ! خلّ بيني وبين الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أتجمعي بالبستاني جامعة ، أو تصلني به صلة . فلتن خلّيت بيني وبين الطريق لآخذن أول قطار ، ولولا أن أشق على مولاي وأكلفه مالا يتكلف السادة للخدم لعرضت عليه أن يضعني في القطار وأن يرسلني إلى أى مدينة شاء ، فإنى لا أبتغي إلا أن أعيش ، في حيث آمن على شرفى هذا الذى لم يذهب ، وعلى عفاى هذا الذى لم يضع وإن ظن سيدى بي الظنون .

قال في غيظ يشبه الرضا وفي سخرية تشبه الجدل : ما تزالين تذكرين السادة والخدم ! فقد علمت منذ حين أن ليس بيننا سيادة ولا خدمة ، وإنما بيننا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً .

قلت : وما ذاك ؟ قال : هو هذا . . . ثم اندفع إلى هاجماً كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدرداً ، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحبت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تدعن إلا إذا رغبت في الإذعان . ومن أجل ذلك ارتدّ عني كما هجم على ، واستؤنف الخصام بيننا كما كان من قبل عنيفاً ليناً ، وملتوياً مستقيماً ، وفيه ما فيه من هذه الألوان التى تفسد حياة العاشقين وتزينها في وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجدر لنفسى منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دفع كل منا إلى صاحبه دفعاً ، وردّ كل واحد منا عن صاحبه ردّاً ، لا يستطيع أن يخرجني من داره ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ، ولا أستطيع أن أفارقه جهرَةً ولا خفية ، ولو قد فعلت لطلبني حيث أكون من الأرض .

فليس عندي شك الآن في أن سيدى لا يشتهنى ولا يبتغى أن يظهر علىّ ويتنصر على خصم عنيد ، وإنما هو الحب ، هو الحب الذى يطمع في كل شيء ويرضى بأقل شيء ، بل يرضى بلا شيء ، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن بيتاً واحداً يحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب ما في ذلك شك ، لكن الشك المؤلم المضنى إنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنىّ أنا ، فما خطبه ؟ أمبغض هو كما كان مبغضاً من قبل ؟ أراغب هو في الانتقام كما كان راغباً من قبل ؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت في ذلك القضاء العريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقيم معها على هذا الينبوع الأحمر ، والتى قد طال مقامها معها حول هذا الينبوع ، وانقطعت زيارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين ؟

نعم ! الشك في هذا القلب الذى يضطرب بين جنى بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبني ولا يستطيع عني سلواً . ما خطب هذا القلب ؟ أحب هو أم غير مكترث ؟ فإن تكن الأولى فقيم المقاومة ، وفيم العذاب ، وفيم تعذيب الحبيب ؟ وإن تكن الثانية فقيم البقاء في هذه الدار ، وفيم الصبر على هذه الحياة التى لا تطاق ؟

كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة ، ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد . . .
فقد محى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد . فقد آن لك أن تفكرى ، واعزى أمرك فقد آن لك أن تعزميه ، أقيمي كما تقيم العاشقة أو ارتحلي . كما ترتحل القالية ، فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خير وليس لأحد فيها غناء ، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

وقد فكرت سعاد ، وما كانت فى حاجة إلى التفكير . وقد امتلأ قلبها وعقلها بهذه الحياة التى تعيها امتلاء ، وامتزجا بها امتزاجاً ، حتى أصبحت جزءاً منهما أو أصبحتا جزأين منها ، وحتى أصبح من أعسر الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة فى هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً لا يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التى تتصور مرة كأنها النور الذى لا نفور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذى لا إقبال بعده ، وهى فى الحالين شىء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذى هو الحب .

نعم ! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها فى لحظة أو نوم ، إنما هى مستصعبة هذا الشاب إن حضر ، ومستصعبة هذا الشاب إن غاب . لا تهم بالخلوة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه ، ولا تمد عينها إلا رأت شخصه ، ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذ الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد زاد عنها كل شىء وكل إنسان ، وذاد عنها حتى أخنها تلك العزيزة وأشباحتها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون . لقد صرفت إليه عن كل شىء ، وصرفت إليها عن كل شىء .

ولم يبق بين هذين الخصمين العنيدين صراع أو تفكير فى الصراع ، وإنما هو الإذعان الذى لا ثورة بعده والامتسلام الذى لا رجوع فيه . ولكن الكبرياء ما زالت مسيطرة على سعاد ، تصارع الحب فيها

فتصرعه ، وتغالب العشق فيها فتغلبه ، وما أكثر ما اندفعت الفتاة إلى الاستسلام ! حتى إذا تكادت تنتهى منه إلى غايته ، وحتى إذا بلغت حافة الهوة وكادت تتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عنيفة ، ونصبت أمام عينها مرآة تنظر فيها فترى صورة آمنة الأبية العزيزة ، وترى صورة سعاد الضعيفة المتهاككة ، فترتد وراءها خطوة أو خطوات ، وتوكل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول !

وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً ، فهو محب يلقي من الحب عناء وبلاء ، ويجد من آلامه مثل ما أجده . ولكن كبريائه قد ردت إليه هو أيضاً فأصبح يتمنى في غير إلحاح ، ويأمل في غير إلحاف ، كأنما أحس في حبه شيئاً من حياة فآثر القصد والاعتدال ، وكأنما أحس الإخفاق المتصل فآثر الحرمان في شيء من العزة على ذلك الإلحاح الذى لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخذلان .

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا ، وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضا والحزن . يقبل على ذات مساء لا ثائراً ولا مستسلماً ، ويقول لى فى صوت لا حدة فيه : لقد آن لك أن تستريحى ، وآن لى أن أستريح ! فأنظر إليه نظرة التى لم تفهم عنه والتى تعودت أن تسمع كثيراً فتفهم أو لا تفهم دون أن تحفل بما يستقر فى نفسها أو يعزب عنها مما تسمع ، ولكنه يعيد على حديثه فأنسأله عما يريد ، فيقول : سنفترق لأنى نقلت إلى القاهرة .

وتقع من نفسى هذه الجملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا ذاهلة لا أجيء ولا أتكلف حتى إخفاء الذهول ، وإذا أنا أجده شيئاً من الدوار يكاد يبلغ بى الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تهمر فى صمت متصل ، وإذا الفتى يدنو منى فلا أرتد عنه ، وإذا هو يضع يديه على كتفى فلا أمتنع عليه ، وإنما أنا مغرقة فى الصمت ودموعى

ماضية في الانهمار ، والفتى قائم بمكانه منى في هלוه لم أعهده ، ينظر إلى صامتاً دهشاً ، ثم ينأى عنى قليلاً وهو يقول في صوت شاحب : ماذا أرى ! إنك لتكرهين فراقى حقاً !

ثم يعود إلى صمته ، وأمضى أنا في صمى ، وتمضى دموى في الانهمار . وما أدري أطلال بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكنى أسمعهم يدعونى في صوت قد فارقه شحوبه وعاد ممثلاً مشرقاً كما عرفته ، وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى وجهاً مشرقاً أشد الإشراف قد استقرت فيه أمارات الحزم والهلوه ، وإذا هو يقول لى : أما والأمر بيننا على ما أرى فلن نفرق . ستصحبينى إلى القاهرة ، ولن ينالك منى إلا ما تحبين . هلم فامضى فى شؤونك كما تعودت أن تفعل ، هبى من أمرك وأمرى للسفر ، فلن نقيم هنا إلا أياماً .

ثم ينصرف عنى كما أقبل على هادئاً رزين الخطا . وقد أنكرت من نفسى كل شيء ، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم أستطع إخفاءه ، ولكنى لا أجدر من نفسى قوة على اللوم ، وإذا أنا راضيه عن هذه الحال الجديدة رضى عميقاً قد مازج نفسى واختلط يدى ، ولكنه فى الوقت نفسه رضى حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما هى حياة الخادم التى اطمانت إلى ما يلم بها من الأحداث ، ومضت فى حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هى مستسلمة تذهب وتجيء ، وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ، لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد فى هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى منذ ذلك الوقت نظرات يرث من الطمع والأمل ، وفنعت منى بما يقنع به السيد الذى من الخادم

النقية ، فلا إثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هي حياة نقية بريئة قد استوثقت بيننا كأننا لم نلتق قبل ذلك الوقت ، وكأن أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التي أنبأني فيها أنه قد آن لكلينا أن يستريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإني لأدعو أخى حين أخلو إلى نفسى فى النهار وحين أخلو إلى نفسى فى الليل فلا تستجيب لى صورتها التى كنت أعرفها فى المدينة باسمه مشرقة ، ولا تستجيب لى صورتها التى عرفتها فى بيت العمدة واجمة هائمة ، ولا تستجيب لى صورتها التى كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر ، تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لى صورة من هذه الصور ، وإنما هى ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفرات وقد تنهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتى المضيفة الهادئة ، الحزينة فى غير تكلف لحزن أوسرور . وأنتقل مع سيدى إلى القاهرة وأقيم معه فى دار أبويه موكلة بخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجد من أبويه إلا برّاً وعطفاً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلى كلما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفانى لنفسه ، واختصنى بوده ، وجعل يشركنى فى كثير من أمره .

يا لله ! إني لأحس شهاً بين هذه الحياة التى أحيها مع هذا الشاب فى دار أبويه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التى كنت أحيها مع خديجة فى بيت أبويتها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد الأمر بينى وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بينى وبين خديجة من النقاء والطهر . ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء !

ولكنها صداقة غريبة هذه التى تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف

الغنى ، وهذه الخادم البائسة التى طالما طمعت فيها نفسه الطامحة ، وأغرته بها عواطفه الجامحة ، والتى طالما اتخذها غرضاً لأهوائه الآثمة ، وابتغى عندها من اللهو والمجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرها كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ، ولم تستطع أن تقهره . وأقاما معاً فى شيء من المودة لا يستطيع عنها سلوكاً ، ولا تثبت طبع عنه انصرافاً ، لا يشير إليها من أماله ومطامعه بقليل أو كثير ، ولا تلقاه هى من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد فى حاجة إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسى أم أصدقها ؟ أأصارعها بالحق أم أموره عليها الأمر ؟ لقد رضيت حياتنا الحديدية واطمأن إليها قلبي كل الاطمئنان ، واغشيت بها نفسى أشد الاغشيط ، وارتاح إليها ضميرى هذا المتعب المعبذب الذى كان فى حاجة إلى أن يرتاح . ولكن أظل قلبي مطمئناً ونفسى مغشطة وضميرى مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور فى مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤلفين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالت وبأن هذه المودة قد اتصلت أكثر بما كان ينبغى أن تتصل ؟ ألم أجد فى أعماق ضميرى شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك الحصار ؟ ألم أحس فى دخيلة نفسى أن حياة هذا الشاب قد يكون لوناً من الصدأ وأن احتشامه قد يكون فناً من الإعراض ؟ بلى ! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسى أشد الإنكار ولتها فيه أعنف اللوم ، وما أشك فى أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ، ولأم نفسه فى مثل ما كنت ألوم نفسى فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلاً على نفسه وعلى نفسى أنه سار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التى ألفها فى الأيام الأخيرة من حياته فى الأقاليم .

فكان يغدو إلى عمله مصباحاً ويروح إلى دار أبيه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يُلْمَنون بدورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفي القاهرة مما يقن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها . فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا ، وابتهجا بمحض ابنهما كل الابتهاج ، ولكنهما وجدا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه في لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه في الخروج فلم يستجب لهذا الرغبة ، وكثيراً ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو الغدو على العمل والرواح إلى الدار ، والأوقات ينفقها مع أبيه ، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدم الليل .

وكان في أثناء ذلك ربما دعاني إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع مني ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان ، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى .

كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفه غير بعيدة من مكتبه . وما أكثر ما دعاني إلى الجلوس وما أشد ما كنت أتمنى الجلوس ! ولكنني كنت أعذر باسمي ؛ فما ينبغي لمثل أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثلي من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

ألم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان .

بيننا من الائتلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذى يكون بين الأصدقاء ؟ ! أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حياً نائراً أكنمه على ما كان يكلفنى كتمانها من الجهد ومحملنى من المشقة والعناء . وأما هو فقد كنم أمره أسابيع وشهوراً حتى خدعنى أو كاد يخدعنى عن نفسه ، ولكنه ألقى الثقاب ذات مساء فقير من أمرنا كل شيء ، ألقاه فى غير جهد وفى غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذى تضطرم فيه نار الحب . إنما تحدث إلىّ فى هذا الأمر كما كان يتحدث إلىّ فى أمر المدينة وفى أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ولا اعوجاج فيه ولا التواء !

قال : ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهى إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : هذا الحب الذى اختصمنا فيه وقتاً طويلاً وسكتنا عنه وقتاً طويلاً ، ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهلتى ساعة . أما ينبغي أن تنتهى هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكنى لم أرد عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتى استأنف حديثه فى صوت لا يزال سواء ، فقال : إنك تفهمين غنى اليوم ما أريد ، كما فهمت غنى من قبل ما كنت أريد . قلت مبتسمة : بل لى لم أفهم عنك شيئاً . قال ضاحكاً : بل تفهمين أنى كنت أريدك على الإثم ، وإنى الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتجت إلى أن أعتد على كرسي كان منى غير بعيد ، فإن فكرة الزواج لم تخطر لى قط ، وما كان ينبغي أن تخطر لى ؛ فقد أقلمت على كثير من خطير الأمر وتصورت فى نفسى كثيراً من جليل .

العمل ، ولكنى احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجنى الحب كما لم يخرجنى
البغض ، ولم يخرجنى الأمل كما لم يخرجنى اليأس ، عن طورى فى لحظة من
اللمحظات . لذلك أحبته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه .
قالى وهو يضحك : فإنك تظنين أنى أعبت ، وتقدرين ما بينك
وبينى من الفرق الاجتماعى متى تزوج السيد الغنى المترف من خادمه
الشقية الفقيرة البائسة ! أليس هذا هو ما تقدرين ؟ فأرىحى نفسك
إذن من كل هذه الحواطر ؛ فقد رأيت منذ موقفنا ذاك فى المدينة أنى
لست سيداً كغيرى من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست
خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيتك تنتظرينى إلى آخر
الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتي سبقنك إلى خدمتى ،
ولكنى لم أكن أقدر أنك ستثيرين فى نفسى ألواناً أخرى من الدهش .
ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، وليت مائلة ذاهلة
لا أقول شيئاً ، وأكاد لا أعى شيئاً ، ولكنه رفع رأسه ، وقال فى صوت
هادئ حزين : أتقبلين ؟ قلت فى صوت ليس أقل من صوته هدهواً
ولا حزناً : فإن سيدى يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل . قال : تفكرين
فى أبوى ! فإنى قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمرى ، وما أشك
فى أنهما لن يمتنعاً على ، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما ،
ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين ؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل .
قال : فن حتى عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراقاً
بيننا مستحيل ، وإنى لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبينا رضا إلا فى
الزواج . قلت : فقد قضى على قلبينا ألا يرضيا . قال : ومن ذا الذى
قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهممت أن أجيب ولكن صوتى
يحتبس ، ودعوى ينطلق ، وإنى لأراني أهم بالانصراف ، وإنى لأراه
قد نهض من مجلسه متاقلاً وسعى إلى متباطئاً حتى ردى فى هدوء ودعة ،

تم عاد إلى مجلسه وقال : أترين إلى كيف أملك نفسي ! ألا تفكرين في تلك الثورة الجاحمة التي شقيت بها وقتاً طويلاً .

أنبئني من ذا الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التي قضت علينا هذا العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر ونكر ، وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المودعة الهائلة التي لا ينبغي أن نطمع في خير منها فليس في الحياة خير منها بالقياس إليك ولا بالقياس إلى . قال : فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً . قلت : فخير لنا أن نقبله على ما فيه من غموض . قال ، وقد ظهر أنه يبذل جهداً ليحتفظ بهدوئه : فإني أقسم لك أنني لم أعد أستطيع صبراً على هذه الحياة . قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ، ولكن ما الذي نستطيع أن تفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال : أي قضاء ؟ ألم يأن لك أن تفصحى ، ألم يأن لي أن أفهم ، ألم يأن لهذه الظلمة أن تنجاب ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إني لأخشى إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر في وجه صاحبه . قال ، وقد غلبه العنف ، فارتفع صوته قليلاً واضطربت يده اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة . قلت : فاذن لي إذا بالجلوس ، ولم أنتظر إذنه ، وإنما جلست على هذا الكرسي الذي كنت أعتمد عليه ، وألقيت عليه قصتي في صوت هادئ مطرد لا يبله الدمع ولا يظهر فيه الحزن ، ولا ينم عن قليل أو كثير من الاضطراب إنما ألقيت عليه قصتي كأني أتحدث عن شخص غريب إلى شخص غريب .

وما أدري أ طال الوقت الذي ألقيت فيه قصتي أم قصر ، ولكنني أعلم أنني سمعتني أقول : أفهمت الآن ؟ أترى إلى هذا الضوء الذي

يغمرنا ؟ أستطيع أن تنظر إلى ؟! وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة ، ولكنى سمعته كأنما كان يتحدث إلى من مكان بعيد جداً ، سمعته يقول : نعم ! أستطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك ، وأنت أنطيقين أن تنظري إلى ؟ أما زلت تضررين الانتقام ؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسها وذاب قلبها ، فهو يسيل من عيناها دموعاً . ثم أسمعته بعد وقت لا أدري أكان طويلاً أم قصيراً يقول لى : لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ، فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التي خرجنا منها ؟ إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدى في هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحلك ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدى ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب ! غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم في نوم برىء من الأحلام .

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغنى فيترعنى انتزاعاً من هذا الصمت العميق ، فأثب وجلة مذعورة ، ويثب هو وجلاً مذعوراً ، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء ، فأما أنا فتتحلر على خدى دمعتان حارتان . وأما هو فيقول وقد اعتمد يديه على المائدة ، دعاء الكروان ! أترينه كان يرجع صوته هذا الترجيع حين صرعت هنادى في ذلك القضاء العريض !

القاهرة ، سبتمبر ١٩٣٤

دعاء الكروان.. رواية خالدة فى
تاريخ الأدب العربى، فقد أثرت مأساة
أمنة وهنادى - فى هذه الرواية - فى
وجدان أجيالٍ وأجيالٍ.. فالرواية وإن
كانت عن حياة البدو الرُّحَّل داخل
الريف المصرى فإن مأساة هنادى هى
مأساة الإنسان فى كل مكان حين تقهره
مقدرات الظروف الطاغية.. فيجتاحه
حُكْم المجتمع غير المؤهل لإصدار هذا
الحُكْم بالتبعية.

رواية خالدة.. يمكن أن تقرأها أكثر
من مرة.. ويكفى أنها بقلم أديب العرب
الدكتور طه حسين.



دارالمعارف

٠١٤٢١٣/٠١

